١٨

صفوة التفاسير

القسم الثامن عشر

تفسير جزء قد سمع

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

حفظه ووفقه الله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الثامن عشر

تأليف
محمد علي الصابوني
الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبع على نفقة المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة ، العمارية ، الرياض



بين يدي السورة

* سورة المجادلة مدنية ، وقد تناولت أحكاماً تشريعية كثيرة كأحكام الظهار ، والكفارة التي تجب على المظاهر ، وحكم التناجي ، وآداب المجالس ، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ ، وعدم مودة أعداء الله ، إلى غير ذلك ، كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود .

* ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة « خولة بنت ثعلبة » التي ظاهر منها زوجها - على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار - وقد جاءت تلك المرأة رسول الله ﷺ تشكو ظلم زوجها لها وقالت يا رسول الله : « أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني حتى إذا كبرتْ سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني » ورسول الله ﷺ يقول لها : ما أُراك إلا قد حرمت عليه ، فكانت تجادله وتقول يا رسول الله : ما طلقني ولكنه ظاهر مني ، فيرد عليها قوله السابق ، ثم قالت : اللهم إني أشكو إليك ، فاستجاب الله دعاءها ، وفرَّج كربتها وشكواها ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . .﴾ الآيات .

* ثم تناولت حكم كفارة الظهار ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتهم إنْ أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفوٌ غفور . .﴾ الآيات .

* ثم تحدثت عن موضوع التناجي ، وهو الكلام سراً بين اثنين فأكثر ، وقد كان هذا من دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين ، فبينت حكمه وحذَّرت المؤمنين من عواقبه ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلا هو رابعهم . .﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء ، الذين كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ فيحيونه بتحية ملغوزة ، ظاهرها التحية والسلام ، وباطنها الشتيمة والمسبَّة كقولهم : السامُ عليك يا محمد يعنون الموت ﴿وإذا جاءوك حيَّوْك بما لم يُحيِّك به الله﴾ .

* وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيء من الإسهاب ، فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء ، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين

وفضحتهم ﴿ألم تر إلى الذين تولَّوا قوماً غضب الله عليهم . . ﴾ الآيات .

* وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله ، والبغض في الله ، الذي هو أصل الإِيمان وأوثق عرى الدين ، ولا بدَّ في اكتمال الإِيمان من معاداة أعداء الله ﴿لا تجد قوماً يؤ منون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإِيمان . . ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿قد سمع اللهُ قول التي تجادلك في زوجها . . إلى . . وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللغـــة : ﴿تحاوركما﴾ المحاورة : المراجعة في الكلام من حار الشيء يحور إذا رجع يرجع ومنه الدعاء المأثور « نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر » قال عنترة في فرسه :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

﴿يظاهرون﴾ الظهار مشتق من الظهر يقال : ظاهر من امرأته إذا حرمها على نفسه بقوله : أنتِ عليَّ كظهر أمي ﴿منكراً﴾ المنكر : كل ما قبَّحه الشرع وحرَّمه ونفَّر منه ، وهو خلاف المعروف ﴿يحادون﴾ المحادَّة : المعاداة والمخالفة في الحدود والأحكام وهي مثل المشاقة قال الزجاج : المحادَّة أن تكون في حدٍّ يخالف حد صاحبك ، وأصلها الممانعة ﴿كبتوا﴾ الكبتُ : القهر والإِذلال والخزي يقال : كبته أي قهره وأخزاه ﴿نجوى﴾ النجوى : الكلام بين اثنين فأكثر سراً ، تناجى القوم تحدثوا فيما بينهم سراً ﴿حسبهم﴾ كافيهم .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي أن «خولة بنت ثعلبة» امرأة « أوس بن الصامت » أراد زوجها مواقعتها يوماً فأبت ، فغضب وظاهر منها ، فأتت رسول الله ﷺ وقالت يا رسول الله : إن أوساً ظاهر مني بعد أن كبرت سني ، ورقَّ عظمي ، وإنَّ لي منه صبيةً صغاراً ، إن ضممتُهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا فما ترى !! فقال لها : ما أراكِ إلا قد حرمتِ عليه . فقالتْ يا رسول الله : واللهِ ما ذكر طلاقاً وهو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليَّ ، فجعل رسول الله ﷺ يعيد قوله : ما أراكِ إلا قد حرمتِ عليه ، وهي تكرر قولها ، فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزل قوله تعالى ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . . ﴾ الآيات .

ب ـ وروى البخاري عن عائشة أنها قالت : تبارك الذي وسع سمعُه الأصواتَ ، لقد جاءت المجادلة ـ خولة بنت ثعلبة ـ فكلمت رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت أسمع كلامها ويخفى عليَّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها وتقول يا رسول الله : أبلى شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني ، اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات[٢] .

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٧٩ . (٢) أخرجه البخاري وابن ماجه والبيهقي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

التفسير : ﴿قد سمع اللهُ قول التي تُجادلك في زوجها﴾ « قد » لا تدخل إلا على الأفعال ، وإذا دخلت على الماضي أفادت التحقيق ، وإذا دخلت على المضارع أفادت التقليل كقولك : قد يجودُ البخيلُ ، وقد ينزل المطر والمعنى : حقاً لقد سمع الله قول المرأة التي تراجعك وتحاورك في شأن زوجها قال الزمخشري : ومعنى سماعه تعالى لقولها إجابة دعائها ، لا مجرد علمه تعالى بذلك ، وهو كقول المصلي : سمع اللهُ لمن حمده[1] ﴿وتشتكي إلى الله﴾ أي وتتضرع إلى الله تعالى في تفريج كربتها ﴿واللهُ يسمعُ تحاوركما﴾ أي واللهُ جلَّ وعلا يسمع حديثكما ومراجعتكما الكلام ، ماذا قالت لك ، وماذا رددت عليها ﴿إن الله سميعٌ بصير﴾ أي سميع بمن يناجيه ويتضرع إليه ، بصير بأعمال العباد ، وهو كالتعليل لما قبله ، وكلاهما من صيغ المبالغة أي مبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات[2] .. ثم ذمَّ تعالى الظهار وبيَّن حكمه وجزاء فاعله فقال ﴿الذين يُظاهرون منكم من نسائهم ما هنَّ أمهاتهم﴾ أي الذين يقولون لنسائهم : أنتن كظهور أمهاتنا يقصدون بذلك تحريمهن عليهم كتحريم أمهاتهن ، لسن في الحقيقة أمهاتهم وإنما هنَّ زوجاتهم قال الإمام الفخر : الظهار هو عبارة عن قول الرجل لامرأته : أنتِ عليَّ كظهر أمي ، يقصد عُلُوّي عليك حرامٌ كعلوي على أمي ، والعربُ تقول في الطلاق : نزلتُ عن امرأتي أي طلقتها ، فغرضهم من هذه اللفظة تحريم معاشرتها تشبيهاً بالأم وقوله ﴿منكم﴾ توبيخٌ للعرب وتهجينٌ لعادتهم في الظهار لأنه كان من أيمان أهل الجاهلية خاصةً دون سائر الأمم[3] ﴿إنْ أمهاتُهم إلاّ اللائي ولدنهم﴾ أي ما أمهاتهم في الحقيقة إلاَّ الوالدات اللاتي ولدنهم من بطونهن وفي المثل « ولدك من دمَّى عقبيك » وهو تأكيد لقوله ﴿ما هنَّ أمهاتهم﴾ زيادة في التوضيح والبيان ﴿وإنَّهم ليقُولون مُنكراً من القول وزُوراً﴾ أي والحال إن هؤلاء المظاهرين ليقولون كلاماً منكراً تنكره الحقيقة وينكره الشرع ، وهو كذبٌ وزورٌ وبهتان ﴿وإن الله لعفوٌ غفور﴾ أي مبالغ في العفو والمغفرة لمن تاب وأناب قال في التسهيل : أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور ، فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة ، والزور هو الكذب ، وإنما جعله كذباً لأن المظاهر يجعل امرأته كأمه ، وهي لا تصير كذلك أبداً والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشياء : أحدها قوله ﴿ما هنَّ أمهاتهم﴾ فإن ذلك تكذيب للمظاهر

(١) تفسير الكشاف ٤/ ١٥٠. (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٣ . (٣) التفسير الكبير بشيء من الايجاز ٢٩/ ٢٥١ .

وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ
سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ

والثاني أنه سمَّاه منكراً والثالث أنه سماه زوراً والرابع قوله تعالى ﴿وإنَّ الله لعفوٌ غفور﴾ فإنَّ العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب ، والذنب مع ذلك لازمٌ للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة[١] . . ثم بيَّن تعالى طريق الكفارة عن هذا القول الشنيع فقال ﴿والذين يظاهرون من نسائهم﴾ أي يظاهرون من زوجاتهم بتشبيههنَّ بالأمهات ﴿ثم يعودُون لما قالوا﴾ أي يعودون عمَّا قالوا ، ويندمون على ما فرط منهم ، ويرغبون في إعادة أزواجهم إليهم ﴿فتحرير رقبةٍ من قبل أن يتماسَّا﴾ أي فعليهم إعتاقُ رقبةٍ - عبداً كان أو أمةً - من قبل أن يعاشر زوجته التي ظاهر منها أو يجامعها ،والتَّماسُ كنايةٌ عن الجماع ودواعيه من التقبيل واللمس عند الجمهور قال الخازن : المرادُ من التماسِّ المجامعةُ فلا يحل للمظاهر وطءُ امرأته التي ظاهر منها ما لم يُكفِّر[٢] وقال القرطبي : لا يجوز للمظاهر الوطءُ قبل التكفير ، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير ، وعن مجاهد تلزمه كفارتان[٣] ﴿ذلكُم تُوعظون به﴾ أي ذلكم هو حكم الله فيمن ظاهر ليتعظ به المؤمنون، حتى تتركوا الظهار ولا تعودوا إليه ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي عالم بظواهر الأمور وبواطنها ومجازيكم بها ، فحافظوا على حدود ما شرع لكم من الأحكام ﴿فمن لم يجد فصيامُ شهرين متتابعين من قبل أن يتماسَّا﴾ أي فمن لم يجد الرقبة التي يعتقها فعليه صيام شهرين متواليين من قبل الجماع قال المفسرون : لو أفطر يوماً منها انقطع التتابع ووجب عليه أن يستأنفها ﴿فمن لمْ يستطع فإطعام ستين مسكيناً﴾ أي فمن لم يستطع الصيام لكبرٍ أو مرض ، فعليه أن يُطعم ستين مسكيناً ما يشبعهم ﴿ذلك لتُؤمنوا باللَّهِ ورسوله﴾ أي ذلك الذي بيناه من أحكام الظهار من أجل أن تصدقوا بالله ورسوله في العمل بشرائعه ، ولا تستمروا على أحكام الجاهلية ﴿وتلك حُدود اللَّهِ﴾ أي وتلك هي أوامرُ الله وحدوده فلا تعتدوها ﴿وللكافرين عذابٌ أليم﴾ أي وللجاحدين والمكذبين بهذه الحدود عذاب مؤلم موجع قال الألوسي : أطلق الكافر على متعدي الحدود تغليظاً وزجراً .[٤] ﴿إن الذين يُحادُّون﴾ ولما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده، ذكر المحادين المخالفين لها فقال ﴿إنَّ الذين يُحادُّون الله ورسوله﴾ أي يخالفون أمر الله ورسوله، ويعادون الله ورسوله قال أبو السعود: أي يعادونهما ويشاقونهما لأن كلاً من المتعادين في حدٍّ وجهة غير حدِّ الآخر وجهته، وإنما ذكرت المحادَّة هنا دون المعاداة

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٢ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٤٥ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٨٣ . (٤) تفسير الألوسي ٢٨/ ٢٠ .

مُهِينٌ ﴿٦﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

والمشاقّة لمناسبة ذكر « حدود الله » فكان بينهما من حسن الموقع ما لا غاية وراءه[1] ﴿كُبِتوا كما كُبت الذين من قبلهم﴾ أي خُذلوا وأهينوا كما خُذل من قبلهم من المنافقين والكفار الذين حادُّوا الله ورسله وأُذلوا وأُهينوا ﴿وقد أنزلنا آياتٍ بيناتٍ﴾ أي والحال أنا قد أنزلنا آياتٍ واضحات ، فيها الحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ﴿وللكافرين عذابٌ مهين﴾ أي وللكافرين الذين جحدوها ولم يعملوا بها عذاب شديد يهينهم ويذهب عزَّهم قال الصاوي : وقد نزلت هذه الآية في كفار مكة يوم الأحزاب حين أرادوا التحزب على رسول الله ﷺ والمقصودُ بها تسلية رسول الله ﷺ وبشارته مع المؤمنين بأن أعداءهم المتحزبين سيذلون ويخذلون ويفرق جمعهم فلا تخشوا بأسهم[2] ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً﴾ أي اذكر ذلك اليوم الرهيب حين يحشر الله المجرمين كلهم في صعيد واحد ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي فيخبرهم بما ارتكبوا في الدنيا من جرائم وآثام ﴿أحْصاهُ اللهُ ونسوه﴾ أي ضبطهَ الله وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم ، بينما هم نسوا تلك الجرائم لاعتقادهم أن لا حساب ولا جزاء ﴿واللهُ على كل شيء شهيد﴾ أي وهو جل وعلا مطَّلع وناظر لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى عليه شيء . . ثم بيَّن تعالى سعة علمه ، وإحاطته بجميع الأشياء ، وأنه تعالى يرى الخلق ويسمع كلامهم ويرى مكانهم حيث كانوا وأين كانوا فقال ﴿ألمْ ترَ أنَّ اللهَ يعلمُ ما في السَّموات وما في الأرض ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلاَّ هو رابعُهم﴾ أي ألم تعلم أيها السامع العاقل أن الله مطَّلع على كل ذرةٍ في الكون ، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية ، ما يقع من حديثٍ وسرٍّ بين ثلاثة أشخاص إلا كان الله رابعهم بعلمه ومشاركاً لهم فيما يتحدثون ويتهامسون به في خفية عن الناس . ﴿ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم﴾ أي ولا يقع مناجاةٌ وحديث بالسر بين خمسة أشخاص إلا كان الله معهم بعلمه حتى يكون هو سادسهم ﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا﴾ أي ولا أقلَّ من ذلك العدد ولا أكثر منه إلاَّ واللهُ معهم يعلم ما يجري بينهم من حديثٍ ونجوى ، والغرض : أنه تعالى حاضر مع عباده ، مطَّلع على أحوالهم وأعمالهم ، وما تهجس به أفئدتهم ، لا يخفى عليه شيء من أمور العباد ، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ أي ثم يخبرهم تعالى بما عملوا من حسن وسيء ويجازيهم عليه يوم القيامة ، لأنه عالم بكل شيء من الأشياء قال المفسرون : ابتدأ الله هذه الآيات بالعلم بقوله ﴿ألم تر أنَّ الله يعلم﴾ واختتمها بالعلم بقوله ﴿إن الله بكل شيء

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤٤ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٨١ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨﴾

عليم﴾ لينبه إلى إحاطة علمه جل وعلا بالجزئيات والكليات ، وأنه لا يغيب عنه شيء في الكائنات لأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، قال ابن كثير : وقد حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بالمعية في هذه الآية ﴿إلا هو معهم﴾ مغية علمه تعالى ، ولا شك في إرادة ذلك ، فسمعه مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه مطَّلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء[1] . . ثم أخبر تعالى عن أحوال اليهود والمنافقين فقال : ﴿ألَمْ تَرَ إلى الَّذين نهُوا عنِ النجوى﴾ قال القرطبي : نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت[2] ﴿ثم يعودون لما نهُوا عنهُ﴾ أي ثم يرجعون إلى المناجاة التي نهُوا عنها قال أبو السعود : والهمزة ﴿ألم تر﴾ للتعجيب من حالهم ، وصيغة المضارع ﴿ثم يعودون﴾ للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة[3] ﴿ويتناجون بالإثم والعُدوان ومعصيةِ الرسولِ﴾ أي ويتحدثون فيما بينهم بما هو إثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول ﷺ لأن حديثهم يدور حول المكر والكيد بالمسلمين ، قال أبو حيان : بدأ بالإثم لعمومه ، ثم بالعُدوان لعظمته في النفوس إذ هي ظُلامات العباد ، ثم ترقَّى إلى ما هو أعظم وهو معصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا طعنٌ على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك[4] ﴿وإذا جاءوك حيَّوك بما لم يحَيِّك به اللهُ﴾ أي وإذا حضروا عندك يا محمد حيَّوك بتحيةٍ ظالمةٍ لم يشرعها الله ولم يأذن فيها ، وهي قولهم « السامُ عليكم » أي الموت عليكم قال المفسرون : كان اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون : السامُ عليكم بدلاً من السلام عليكم ، والسامُ الموتُ وهو ما أرادوه بقولهم ، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم : وعليكم لا يزيد عليها ، فسمعتهم عائشة يوماً فقالت : بل عليكم السامُ واللعنة ، فلما انصرفوا قال لها رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة ، إن الله يكره الفُحش والتفحش فقالت يا رسول الله : أما سمعتَ ما قالوا ؟ فقال لها : أما سمعتِ ما قلت لهم ؟ إني قلت لهم : وعليكم ، فيستجيب الله لي فيهم ، ولا يستجيب لهم فيَّ ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا اللهُ بما نقول﴾ أي ويقولون فيما بينهم : هلاَّ يعذبنا الله بهذا القول لو كان محمد نبياً ؟ فلو كان نبياً حقاً لعذبنا الله على هذا الكلام قال تعالى رداً عليهم ﴿حسبُهم جهنَّم يصلونها﴾ أي يكفيهم عذاباً أن يدخلوا نار جهنم ويصلوا حرها ﴿فبئس المصير﴾ أي بئست جهنم مرجعاً ومستقراً لهم قال ابن العربي : كانوا يقولون : لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسبِّه والاستخفاف به ، وجهلوا أن الباري تعالى حليمٌ لا يعاجل العقوبة لمن سبَّه فكيف من سبَّ نبيه ! ! وقد ثبت في

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦١ .(٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٢٩١ .(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤٥ (٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٣٦

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

الصحيح « لا أحد أصبر على الأذى من الله ، يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم » فأنزل الله تعالى هذا كشفاً لسرائرهم ، وفضحاً لبواطنهم ، وتكريماً لرسوله ﷺ [١] ، وأما إمهالهم في الدنيا فمن كراماته ﷺ على ربه لكونه بعث رحمةً للعالمين . . ثم نهى تعالى المؤمنين عن التناجي بما هو إثم ومعصية فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيةِ الرسول﴾ أي إذا تحدثتم فيما بينكم سراً فلا تتحدثوا بما فيه إثم كالقبيح من القول ، أو بما هو عدوان على الغير ، أو مخالفة ومعصية لأمر الرسول ﷺ ﴿وتناجوا بالبرِّ والتقوى﴾ أي وتحدثوا بما فيه خيرٌ وطاعة وإحسان قال القرطبي : نهى تعالى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود ، وأمرهم أن يتناجوا بالطاعة والتقوى والعفاف عما نهى الله عنه[٢] ﴿واتقوا اللَّهَ الذي إليه تُحشرون﴾ أي وخافوا الله بامتثالكم أوامره واجتنابكم نواهيه ، الذي سيجمعكم للحساب ، ويجازي كلاً بعمله ﴿إنَّما النجوى من الشيطان ليحزنُ الذين آمنوا﴾ أي ليست النجوى بالإثم والعدوان إلا من تزيين الشيطان ، ليُدخل بها الحزن على المؤمنين قال ابن كثير : أي إنما يصدر هذا من المتناجين عن تزيين الشيطان وتسويله[٣] ﴿وليس بضارِّهم شيئاً إلا بإذن اللهِ﴾ أي وليس هذا التناجي بضارٍ للمؤمنين شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته ﴿وعلى اللهِ فليتوكل المؤمنون﴾ أي وعلى الله وحده فليعتمد ولْيثق المؤمنون ، ولا يبالوا بنجوى المنافقين فإن الله يعصمهم من شرهم وكيدهم ، وفي الحديث (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه)[٤] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس . . إلى . . ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٢) نهاية السورة

المناسبة : لما نهى تعالى عباده المؤمنين عمَّا يكون سبباً للتباغض والتنافر ، أمرهم بما يصير سبباً لزيادة المحبة والمودَّة ، وهو التوسع في المجالس بأن يفسح بعضهم لبعض ، ثم حذَّر من موالاة أعداء الله ، وختم السورة الكريمة ببيان أوصاف المؤمنين الكاملين .

اللغة : ﴿تفسَّحوا﴾ توسَّعوا يقال : فسح له في المجلس أي وسَّع له ، ومنه مكان فسيح أي واسع ﴿انشزوا﴾ انهضوا وارتفعوا يقال : نشز ينشُز إذا تنحَّى من مجلسه وارتفع منه ، وأصله من النَّشز

(١) نقلاً عن تفسير القرطبي ١٧/٢٩٢ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/٢٩٤ .
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٤٦٣ . (٤) أخرجه البخاري ومسلم .

وهو ما ارتفع من الأرض ﴿جنّة﴾ بضم الجيم وقاية ﴿استحوذ﴾ استولى وغلب على عقولهم ﴿الأذلين﴾ الأذلاء المغمورين في الذل والهوان .

سَبَبُ النّزول : أ ـ عن مقاتل قال : كان النبي ﷺ يُكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناسٌ من أهل بدر فيهم « ثابت بن قيس » وقد سُبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يُوسَّع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشقَّ ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله ـ من غير أهل بدر ـ قم يا فلان ، قم يا فلان ، بعدد الواقفين من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا : ما عدل مع هؤلاء ، قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ! ! فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . .﴾[1] الآية .

ب ـ عن ابن عباس قال : « إن الناس سألوا رسول الله ﷺ وأكثروا عليه حتى شقَّ ذلك عليه ﷺ فأراد الله أن يخفّف عن نبيه ويثبِّطهم عن ذلك فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقات . .﴾ الآية فلما نزلت جبن كثير من المسلمين وكفُّوا عن المسألة[2] .

ج ـ قال السدي : كان « عبد الله بن نبتل » المنافق يجالس رسول الله ﷺ ويرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول الله ﷺ في حجرةٍ من حجراته إذ قال يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبه قلبُ جبار ، وينظر بعيني شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل ـ وكان أزرق العينين فقال له النبي ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ذلك ، فقال له النبي ﷺ : بل فعلت ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين تولَّوا قوماً غضب الله عليهم ، ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾[3] .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ

التفسِير : ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ نداءٌ من الله تعالى للمؤمنين بأكرم وصفٍ وألطف عبارة أي يا من صدَّقتم الله ورسوله وتحليتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان ﴿إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا﴾ أي إذا قال لكم أحد توسعوا في المجالس ـ سواءٌ كان مجلس الرسول ﷺ أو غيره من المجالس ـ فتوسعوا وافسحوا له ﴿يفسح اللهُ لكم﴾ أي يوسِّع لكم ربكم في رحمته وجنته قال مجاهد : كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأُمروا أن يفسح بعضهم لبعض[4] قال الخازن : أمر الله المؤمنين بالتواضع وأن يفسحوا في المجلس لمن أراد الجلوس عند النبي ﷺ ليتساوى الناس في الأخذ من حظهم من رسول الله ﷺ [5] وفي الحديث (لا يقيمنَّ أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكنْ توسَّعوا وتفسَّحوا يفسح

(١) انظر القرطبي ١٧/ ٢٩٧ والتفسير الكبير للرازي ٢٨/ ٢٦٨ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٥ وتفسير الخازن ٤/ ٥٢ . (٣) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٤ (٤) القرطبي ١٧/ ٢٩٦ . (٥) تفسير الخازن ٤/ ٥٠ .

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

اللهُ لكـم)[1] قال الإمام الفخر : وقوله ﴿يفسـح اللَّه لكـم﴾ مطلقٌ في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه في المكان ، والرزق ، والصدر ، والقبر ، والجنة ، واعلم أن الآية دلت على أن كل من وسَّع على عباد الله أبواب الخير والراحة وسَّع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة وفي الحديث (لا يزال الله في عون العبد ما زال العبد في عون أخيه)[2] ﴿وإذا قيـل انشُزوا فانْشُـزوا﴾ أي وإذا قيل لكم أيهـا المؤمنـون انهضـوا من المجلس وقوموا لتوسّعوا لغيركم فارتفعوا منه[3] وقوموا قال ابن عباس : معناه إذا قيل لكم ارتفعوا فارتفعوا قال في البحر : أمروا أولاً بالتفسح في المجلس ، ثم ثانياً بامتثال الأمر فيه إذا أُمروا[4] ، وألا يجدوا في ذلك غضاضة ﴿يرفـع اللـهُ الذيـنَ آمنـوا منكـم والذيـن أوتـوا العلـم درجـات﴾ أي يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة أعلى المراتب ، ويمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة في الجنة قال ابن مسعود : مدح الله العلماء في هذه الآية ثم قال : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم في العلم فإن الله يقول يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذي ليس بعالم درجات وقال القرطبي : بيّـن في هذه الآية أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان ، لا بالسبق إلى صدور المجالس ، وفي الحديث (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب) وعنه ﷺ « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » فأعظمْ بمنزلةٍ هي واسطةٌ بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ[5] ﴿والله بمـا تعملـون خبيـر﴾ أي خبير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه ﴿يا أيهـا الذيـن آمنـوا إذا ناجيتـم الـرسول﴾ أي إذا أردتم محادثته سراً ﴿فقـدِّموا بيـن يـدي نجواكـم صدقـةً﴾ أي فقدموا قبلها صدقة تصدَّقوا بها على الفقراء قال الألوسي : وفي هذا الأمر تعظيم لمقام الرسول ﷺ ، ونفعٌ للفقراء ، وتمييزٌ بين المخلص والمنافق ، وبين محب الدنيا ومحب الآخرة[6] ﴿ذلـكم خيـرٌ لكم وأطهـر﴾ أي تقـديم الصدقات قبل مناجاته أفضل لكم عند الله لما فيه من امتثال أمر الله ، وأطهر لذنوبكم ﴿فإن لـم تجـدوا فإنَّ اللـه غفـور رحيـم﴾ أي فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله يسامحكم ويعفو عنكم ، لأنـه لم

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم (٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٦٩. (٣) أورد العلامة ابن كثير عند هذه الآية الكريمة « حكم القيام للقادم » فقال رحمه الله : وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخّص في ذلك محتجاً بحديث « قوموا إلى سيدكم » ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث « من أحبَّ أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ومنهم من فصَّل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في ولايته لقصة سعد بن معاذ لما استقدمه النبي ﷺ ليحكم في بني قريظة فلما أقبل قال « قوموا إلى سيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه . . ثم قال : وأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم ، وفي السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكنْ حيث يجلس ﷺ يكون هو صدر المجلس . اهـ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٢٣٧ .
(٥) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٠ . (٦) تفسير الألوسي ٢٨/ ٣٠ .

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم
مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ

يكلف بذلك إلا القادر منكم ﴿أأشْفقتم أنْ تُقدِّموا بين يدي نجواكم صدقات﴾ عتابٌ للمؤمنين رقيقٌ رفيق أي أخفتم أيها المؤمنون الفقر إذا تصدقتم قبل مناجاتكم للرسول ﷺ ؟ والغرضُ : لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السموات والأرض ، وهو عتاب لطيف كما بينا ، ثم نسخ تعالى الحكم تيسيراً على المؤمنين فقال ﴿فإذْ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكم﴾ أي فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به وشقَّ ذلك عليكم ، وعفا الله عنكم بأن رخَّص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي فاكتفوا بالمحافظة على الصلاة ودفع الزكاة المفروضة ﴿وأطيعوا اللّهَ ورسوله﴾ أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في جميع أحوالكم ﴿والله خبيرٌ بما تعملون﴾ أي محيطٌ بأعمالكم ونياتكم **قال المفسرون** : نسخ الله ذلك تخفيفاً على العباد حتى قال ابن عباس : ما كان ذلك إلا ساعةً من نهار ثم نسخ[١] **قال القرطبي** : نسختْ فرضيةُ الزكاة هذه الصدقة ، وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روي عن عليٍّ رضي الله عنه أنه قال : « آية في كتاب الله لم يعمل بها أحد قبلي ولا بعدي ، كان عندي دينار فتصدقت به ثم ناجيت الرسول ﷺ الخ فضعيفٌ لأن الله تعالى قال ﴿فإذْ لم تفعلوا﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشيء[٢] ﴿ألم تر إلى الذين تولَّوا قوماً غضب الله عليهم﴾ تعجيبٌ للرسول ﷺ من أمر المنافقين الذين اتخذوا اليهود أصدقاء أي ألا تعجب يا محمد من حال هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان ، وقد اتخذوا اليهود المغضوب عليهم أولياء ، يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ! ! **قال الإمام الفخر** : كان المنافقون يتولون اليهود وهم الذين غضب الله عليهم في قوله ﴿من لعنهُ الله وغضب عليه﴾ وكانوا ينقلون إليهم أسرار المؤمنين[٣] ﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ أي ليس هؤلاء المنافقون من المسلمين ولا من اليهود ، بل هم مذبذبون بين ذلك كقوله تعالى ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ **قال الصاوي** : أي ليسوا من المؤمنين الخلَّص ، ولا من الكافرين الخُلَّص ، لا ينتسبون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء[٤] ﴿ويحلفون على الكذب وهُم يعلمون﴾ أي ويحلفون بالله كاذبين يقولون : والله إنا لمسلمون ، وهم يعلمون أنهم كذبة فجرة **قال أبو السعود** : والصيغةُ مفيدة لكمال شناعة ما فعلوا ، فإن الحلف على ما يُعلم أنه كذبٌ في غاية القبح[٥] ﴿أعدَّ اللهُ لهم عذاباً شديداً﴾ أي هيأ لهم تعالى ـ بسبب نفاقهم ـ عذاباً في نهاية الشدة والألم ، وهو الدرك الأسفل في جهنم ﴿إن المنافقين

(١) تفسير الخازن ٤/ ٥٣ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٣ .
(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٣ .
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٨٤ . (٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٤٧ .

﴿يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي بئس ما فعلوا وبئس ما صنعوا ﴿اتخذوا أيمانهم جُنَّةً﴾ أي جعلوا أيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً لأنفسهم وسترةً لها من القتل قال في التسهيل : أصل الجُنَّة ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس ، ثم استعمل هنا بطريق الاستعارة لأنهم كانوا يظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم[١] ﴿فصدُّوا عن سبيل الله﴾ أي فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام ، بإلقاء الشبهات في قلوب الضعفاء والمكر والخداع بالمسلمين ﴿فلهم عذابٌ مهين﴾ أي فلهم عذاب شديد في غاية الشدة والإهانة ﴿لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة ، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ﴿أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ أي هم أهل النار لا يخرجون منها أبداً ﴿يومَ يبعثهم اللهُ جميعاً﴾ أي يحشرهم يوم القيامة جميعاً للحساب والجزاء ﴿فيحلفون لهُ كما يحلفون لكم﴾ أي فيحلفون لله تعالى كما يحلفون لكم اليوم في الدنيا كذباً أنهم مسلمون قال ابن عباس : هو قولهم : ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾[٢] ﴿ويحْسبون أنهم على شيء﴾ أي يظنون أن حلفهم في الآخرة ينفعهم وينجيهم من عذابها كما نفعهم في الدنيا بدفع القتل عنهم قال أبو حيان : والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على علاّم الغيوب ، ويجرونه مجرى المؤمنين في عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم ، والمقصود أنهم تعودوا الكذب حتى كان على ألسنتهم في الآخرة كما كان في الدنيا[٣] ﴿ألا إنَّهم همُ الكاذبون﴾ أي ألا فانتبهوا أيها الناس إن هؤلاء هم البالغون في الكذب الغاية القصوى حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علام الغيوب ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهُم ذكر اللّه﴾ أي استولى على قلوبهم الشيطان وغلب عليهم وتملَّك نفوسهم حتى أنساهم أن يذكروا ربهم ﴿أولئك حزبُ الشيطان﴾ أي أولئك هم أتباع الشيطان وأعوانه وأنصاره ﴿ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ أي أتباع الشيطان وجنوده هم الكاملون في الخسران والضلالة ، لأنهم فوَّتوا على أنفسهم النعيم الدائم وعرضوها للعذاب المقيم ﴿إنَّ الذين يُحادُّون اللَّهَ ورسوله﴾ أي يعادون الله ورسوله ويخالفون أمرهما ﴿أولئك في الأذلين﴾ أي أولئك في جملة الأذلاء المبعدين من رحمة الله ﴿كتبَ

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٥ . (٢) تفسير القرطبي ١٧/ ٣٠٥ . (٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٣٨ .

كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ

اللّـهُ لأغلبـنَّ أنا ورُسُلـي﴾ أي قضى الله وحكم أن الغلبة لدينه ورسله وعباده المؤمنين **﴿إنَّ اللّـهَ قـويٌّ عزيـز﴾** أي هو تعالى قويٌّ على نصر رسله وأوليائه ، غالبٌ على أعدائه ، لا يُقهر ولا يُغلب **قال مقاتل** : لما فتح الله مكة والطائف وخيبر للمؤمنين قالوا : نرجو أن يُظهرنا الله على فارس والروم ، فقال عبد الله بن سلول : أتظنون أن الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عدداً ، وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت ﴿كتب اللهُ لأغلبـنَّ أنا ورسلي﴾[1] **﴿لا تجـدُ قومـاً يُؤمنـون باللّـهِ واليـومِ الآخـر يُوادُّون من حادَّ اللّـهَ ورسولـه﴾** أي لا يمكن أن ترى أيها السامع جماعة يصدقون بالله وباليوم الآخر يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما ، لأن من أحبَّ الله عادى أعداءه ، ولا يجتمع في قلب واحد حبُّ الله وحبُّ أعدائه ، كما لا يجتمع النور والظلام **قال المفسرون** : غرضُ الآية النهي عن مصادقة ومحبة الكفرة والمجرمين ، ولكنها جاءت بصورة إخبارٍ مبالغةً في النهي والتحذير **قال الإمام الفخر** : المعنى أنه لا يجتمع الايمان مع حبٍّ أعداء الله ، وذلك لأن من أحبَّ أحداً امتنع أن يحب عدوه ، لأنهما لا يجتمعان في القلب ، فإذا حصل في القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان[2] **﴿ولـو كانُـوا آباءهـم أو أبناءهــم أو إخوانهـم أو عشيرتهـم﴾** أي ولو كان هؤلاء المحادُّون لله ورسوله أقرب الناس إليهم ، كالآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والعشيرة ، فإن قضية الإيمان بالله تقتضي معاداة أعداء الله **قال في البحر** : بدأ بالآباء لأن طاعتهم واجبة على الأولاد ، ثم بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب ، ثم بالإخوان لأنهم بهم التعاضد ، ثم بالعشيرة لأن بهم التناصر والمقاتلة والتغلب على الأعداء كما قال القائل :

لا يسـألـون أخـاهـم حين ينـدبهـم ... فـي النـائبـات على ما قـال برهانـا[3]

قال ابن كثير : نزلت **﴿ولو كانوا آباءهم﴾** في « أبي عبيدة » قتل أباه الجراح يوم بدر ، **﴿أو أبناءهـم﴾** في الصدِّيق همَّ بقتل ابنه « عبد الرحمن بن أبي بكر » **﴿أو إخوانهم﴾** في مُصعب بن عمير قتل أخاه عُبيد بن عمير يومئذٍ **﴿أو عشيرتهم﴾** في حمزة ، وعلي ، وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عُتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة يوم بدر[4] **﴿أولئـك كتـب فـي قلوبهـم الايمان﴾** أي أثبت الإيمان ومكنه في قلوبهم ، فهي مؤمنةٌ موقنةٌ مخلصة **﴿وأيَّدهم بروحٍ منـه﴾** أي وقوَّاهم بنصره وتأييده **قال ابن عباس** : نصرهم على عدوهم ، وسمى ذلك النصر روحاً لأن به يحيا أمرهم[5] **﴿ويُدخلهـم جنـاتٍ تجـري من تحتهـا الأنهـار﴾** أي ويدخلهم في الآخرة بساتين فسيحة ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة **﴿خالديـن فيهـا﴾** أي ماكثين فيها أبد الآبدين

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ٢٣٨ وتفسير الألوسي ٢٨/ ٣٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٦ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣٩ . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٧ . (٥) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٧ .

عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿رضي اللهُ عنهم ورضوا عنه﴾ أي قبل الله أعمالهم فرضي عنهم ، ونالوا ثوابه فرضوا بما أعطاهم ، وإنما ذكر رضوانه عليهم بعد دخولهم الجنة لأنه أعظم النعم ، وأجل المراتب قال ابن كثير : وفي الآية سر بديع وهو أنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى ، عوَّضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم[١] ﴿أولئك حزبُ الله﴾ أي أولئك جماعة الله وخاصته وأولياؤه ﴿ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون بخيري الدنيا والآخرة ، وهذا في مقابلة قوله تعالى ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ .

البَــلاَغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ صيغة المبالغة في ﴿إن الله سميع بصير﴾ وفي ﴿غفور رحيم﴾ وفي ﴿على كل شيء شهيد﴾ .

٢ ـ الإطناب بذكر الأمهات ﴿ما هنَّ أُمهاتهم إن أمهاتُهم﴾ زيادةً في التقرير والبيان .

٣ ـ الطباق ﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر﴾ لأن معنى أدنى أقل فصار الطباق بينها وبين أكثر .

٤ ـ عطف الخاص على العام تنبيهاً على شرفه ﴿يرفع اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات﴾ فإن ﴿الذين أُوتوا العلم﴾ دخلوا في المؤمنين أولاً ثم خصوا بالذكر ثانياً تعظيماً لهم .

٥ ـ الاستعارة ﴿فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ استعار اليدين لمعنى قبل أي قبل نجواكم .

٦ ـ الاستفهام والمراد منه التعجيب ﴿ألم تر إلى الذين تولَّوا قوماً غضب الله عليهم ..﴾ .

٧ ـ الجناس الناقص بين ﴿يعلمون﴾ و﴿يعملون﴾ لتغير الرسم .

٨ ـ المقابلة بين ﴿أولئك حزبُ الله ألا إنَّ حزب الله همُ المفلحون﴾ وبين ﴿أولئك حزب الشيطان ..﴾ الآية .

٩ ـ تحلية الجملة بفنون المؤكدات مثل « ألا ، وإنَّ ، وهم » في قوله ﴿ألا إنَّ حزب اللّه هم المفلحون﴾ .

١٠ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿الخاسرون ، الكاذبون ، خالدون ، يعملون﴾

لَطِيفَــة : روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل أن « نافع بن عبد الحارث » لقي عمر بن الخطاب بعسفان ـ وكان عمر استعمله على مكة ـ فقال عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ فقال : استخلفت عليهم « ابن أبزى » فقال : ومن ابن أبزى ؟ فقال : رجلٌ من موالينا فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقال يا أمير المؤمنين : إنه قارىءٌ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاضٍ ، فقال عمر رضي الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قال : (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ، ويضع به آخرين) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المجادلة »

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٨ .



بين يدي السورة

* سورة الحشر مدنية وهي تعنى بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية ، والمحورُ الرئيسي الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن « غزوة بني النضير » وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة ، ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة « سورة بني النضير » وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود ، وبإيجاز هي سورة «الغزوات والجهاد» والفيء والغنائم .

* ابتدأت السورة الكريمة بتنزيه الله وتمجيده ، فالكون كله بما فيه من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجماد ، شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله ، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿سبَّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ .

* ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته ، ومظاهر عزته ، بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم ، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع ، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم ، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . .﴾ الآيات .

* ثم تناولت السورة موضوع الفيء والغنيمة ، فبينت شروطه وأحكامه ، ووضحت الحكمة من تخصيص الفيء بالفقراء ، لئلا يستأثر به الأغنياء ، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع ، بما فيه خير الفريقين ، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين . .﴾ الآيات .

* وتناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر ، فنوَّهت بفضائل المهاجرين ومآثر الأنصار ، فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حباً في الله ، والأنصار نصروا دين الله ، وآثروا إخوانهم - المهاجرين - بالأموال والديار على أنفسهم مع فقرهم وحاجتهم ﴿للفقراء الذين أخرجوا من

ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً . .﴾ الآيات .

* وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار ، ذكرت السورة المنافقين الأشرار ، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام ، وضربت لهم أسوأ الأمثال ، فمثلتهم بالشيطان الذي يُغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله ، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجن معكم . .﴾ الآيات .

* ووعظت السورة المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ، ولا يفيد فيه جاه ولا مال ، وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار ، ومصير السعداء ومصير الأشقياء في دار العدل والجزاء ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد . .﴾ الآيات .

* وختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو . .﴾ الآيات وهكذا يتناسق البدء مع الختام ، أبدع تناسقٍ ووئام !!

* * *

قال الله تعالى : ﴿سبَّح للّهِ ما في السموات وما في الأرض . . إلى . . ربنا إنك رءوف رحيم﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٠) .

اللغَة : ﴿الحشر﴾ الجمع ، وسمي يوم القيامة يوم الحشر لأنه يوم اجتماع الناس للحساب والجزاء ومنه﴿ وحشر لسليمان جنوده﴾ أي جمع له الجنود ﴿قذف﴾ ألقى وأنزل بشدة ﴿الجلاء﴾ الخروج من الوطن مع الأهل والولد ﴿شاقُّوا﴾ عادوا وخالفوا ﴿لينة﴾ بكسر اللام النخلة القريبة من الأرض ، الكريمة الطيبة ، سميت لينة لجودة ثمرها وأنشد الأخفش :

قد شجاني الحمامُ حين تغنَّى ... بفراق الأحباب من فوقِ لينة[١]

﴿أوجفتم﴾ الوجيف : سرعة السير يقال : أوجف البعير إذا حثَّه وحمله على السير السريع ﴿دُوْلَةً﴾ بضم الدال الشيء الذي يتداول من الأموال ، وينتقل من يد إلى يد ﴿خصاصة﴾ فقر واحتياج ﴿غلاًّ﴾ حِقداً وضغينة .

سَبَبُ النّزول : لما نقض اليهود « بنو النضير » العهد مع رسول الله ﷺ حاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإحراقه إهانةً لهم وإرعاباً لقلوبهم ، فقالوا يا محمد : ألست تزعم أنك نبيٌ ؟ وأنك تنهى عن الفساد ؟ فما بالك تأمر بقطع الأشجار وتحريقها ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله . .﴾[٢] الآية .

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٩ . (٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٨٣ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿سبَّح للَّهِ ما في السمواتِ وما في الأرض﴾ أي نزَّه الله تعالى ومجَّده وقدَّسه جميع ما في السمواتِ والأرض من ملك ، وإنسان ، وجماد ، وشجر كقوله تعالى ﴿وإنْ من شيءٍ إلا يسبّح بحمده﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى أن جميع ما في السمواتِ والأرض يسبح له ويُمجده ويقدّسه ويُوحّده[1] ﴿وهو العزيزُ الحكيمُ﴾ أي وهو العزيز في ملكه ، الحكيمُ في صنعه ﴿هو الَّذي أخرج الَّذين كفروا من أهلِ الكتابِ من ديارهم﴾ بيانٌ لبعض آثار قدرته تعالى الباهرة وعزته الظاهرة أي هو جلَّ وعلا الذي أخرج يهود بني النضير من مساكنهم بالمدينة المنورة ﴿لأول الحشر﴾ أي في أول مرة حُشروا وأخرجوا فيها من جزيرة العرب ، إذ لم يصبهم هذا الذل قبل ذلك قال البيضاوي : لما قدمﷺ المدينة صالح « بني النضير » على ألاّ يكونوا معه ولا عليه ، فلما ظهر يوم بدر قالوا : إنه النبي المنعوتُ في التوراة بالنصرة لا تُردُّ له راية ، فلما هُزم المسلمون يوم أُحد ارتابوا ونكثوا ، وخرج « كعب بن الأشرف » في أربعين راكباً إلى مكة وحالفوا « أبا سفيان » فأمر رسول اللهﷺ « محمد بن مسلمة » أخا كعبٍ من الرضاعة فقتله غيلةً ، ثم صبَّحهم بالكتائب وحاصرهم ، حتى صالحوه على الجلاء ، فجلا أكثرهم إلى الشام ، ولحقت طائفة بخيبر ، فذلك قوله ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾[2] قال الألوسي : ومعنى ﴿لأول الحشر﴾ أن هذا أول حشرهم إلى الشام أي أول ما حُشروا وأُخرجوا ، ونبَّه بلفظ ﴿أول﴾ على أنهم لم يصبهم جلاءٌ قبله[3] ﴿ما ظننتم أنْ يخرُجوا﴾ أي ما ظننتم أيها المؤمنون أن يخرجوا من أوطانهم وديارهم بهذا الذل والهوان ، لعزتهم ومنعتهم ، وشدة بأسهم ، حيث كانوا أصحاب حصون وعقار ، ونخيلٍ وثمار ﴿وظنُّوا أنَّهم مانعتُهم حُصونهم من اللهِ﴾ أي وظنوا أن حصونهم الحصينة تمنعهم من بأس الله ، وتدفع عنهم عذابه وانتقامه قال البيضاوي : والأصل أن يُقال : وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعتهم من بأس الله ، وتغييرُ النظم بتقديم الخبر وإسناد الجملة إلى ضميرهم للدلالة على فرط وثوقهم بكونها حصينة ، بحيث ظنوا أنه لا يخرجهم منها أحد لأنهم في عزة ومنعة[4] ﴿فأتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حيثُ لم يحتسبوا﴾ أي فجاءهم بأسُ الله وعذابه من حيث لم يكن في

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٩ . (٢) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٦٩ . (٣) تفسير الألوسي ٢٨/ ٣٩ .
(٤) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٠ .

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾

حسابهم ، ولم يخطر ببالهم ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي وألقى في قلوب بني النضير الخوف الشديد ، مما أضعف قوتهم ، وسلبهم الأمن والطمأنينة ، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وفي الحديث (نُصرت بالرعب من مسيرة شهر)[١] ﴿يُخْربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ أي يهدمون بيوتهم بأيديهم من الداخل ، وأيدي المؤمنين من الخارج قال المفسرون : كان بنو النضير قبل إجلائهم عن ديارهم يخربون بيوتهم فيقلعون العُمد ، وينقضون السقوف ، وينقبون الجدران ، لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً ، وكان المسلمون يخربون سائر الجوانب من ظاهرها ليقتحموا حصونهم ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي فاتعظوا بما جرى عليهم يا ذوي العقول والألباب ﴿ولولا أنْ كتب اللهُ عليهم الجلاء﴾ أي ولولا أن الله تعالى قضى عليهم بالخروج من أوطانهم مع الأهل والأولاد ﴿لعذَّبهم في الدنيا﴾ أي لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ أي ولهم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبد ﴿ذلك بأنهم شاقُّوا اللهَ ورسوله﴾ أي ذلك الجلاء والعذاب بسبب أنهم خالفوا الله وعادوه وعصوا أمره .وارتكبوا ماارتكبوا من جرائم .ونقضٍ للعهود في حق رسوله ﴿ومن يُشاقِّ اللَّهَ فإنَّ اللَّهَ شديدُ العقاب﴾ أي ومن يخالف أمر الله .ويعادِ دينه فاللهُ ينتقم منه لأن عذابه شديد ، وعقابه أليم ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القُرى وهي ظالمة إنَّ أخذه أليمٌ شديد﴾ . .

ثم أخبر تعالى أن كل ما جرى من المؤمنين من قطع النخيل ، وإحراق بعض الأشجار المثمرة ، فإنما كان بأمر الله وإرادته فقال ﴿ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمةً على أصُولها فبإذْنِ اللَّهِ﴾ أي ما قطعتم أيها المؤمنون من شجرة نخيل ، أو تركتموها كما كانت قائمة على سوقها فبأمر الله وإرادته ورضاه ﴿وليُخزي الفاسقين﴾ أي وليغيظ اليهود ويذلهم ، بقطع أشجارهم ونخيلهم قال الرازي : المعنى إنما أذن تعالى في ذلك حتى يزداد غيظ الكفار ، وتتضاعف حسرتهم ، بسبب نفاذ حكم أعدائهم في أعزِّ أموالهم[٢] قال المفسرون : لما حاصر رسول الله ﷺ بني النضير ، كان بعض الصحابة قد شرع يقطع ويحرق في نخيلهم ، إهانةً لهم وإرعاباً لقلوبهم ، فقالوا : ما هذا الإفساد يا محمد ؟ إنك كنت تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة[٣] ﴿وما أفاءَ اللهُ على رسوله منهم﴾ أي وما أعاد الله وردَّه غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير ﴿فما أوجفتم عليه من خيلٍ ولا ركاب﴾

(١) أخرجه الشيخان .(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٨٣ .

(٣) انظر مختصر ابن كثير ٣/ ٤٧١ والبحر المحيط ٨/ ٢٤٤ وانظر سبب النزول السابق .

﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

أي لم تسيِّروا إليه خيلكم ولا ركابكم ، ولا تعبتم في تحصيله قال القرطبي : يقال : وجف البعير وجيفاً إذا أسرع السير ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع ، والركاب : ما يُركبُ من الإبل ، والمعنى : لم تقطعوا إليها شُقةً ، ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة ، وإنما كانت من المدينة على ميلين ، فافتتحها رسول الله ﷺ صلحاً ، وأجلاهم عنها وأخذ أموالهم ، فجعلها الله لرسوله ﷺ خاصة يضعها حيث شاء[١] ﴿ولكنَّ اللَّهَ يُسلِّطُ رُسلَه على من يشاء﴾ أي ولكنه تعالى من سنته أن ينصر رسله بقذف الرعب في قلوب أعدائه ، من غير أن يقاسوا شدائد الحروب ﴿واللهُ على كل شيءٍ قدير﴾ أي هو تعالى قادر على كل شيء ، لا يُغالب ولا يُمانع ولا يعجزه شيء . . ثم بيَّن تعالى حكم الفيء عامةً ـ وهو ما يغنمه المسلمون بدون حرب ـ فقال ﴿ما أفاءَ اللهُ على رسوله من أهل القُرى﴾ أي ما جعله الله غنيمةً لرسوله بدون قتال من أموال الكفار قال ابن عباس : هي قريظة ، والنضير ، وفدك ، وخيبر[٢] ﴿فللَّه وللرسول﴾ أي فحكمها أنها لله تعالى يضعها حيث يشاء ، ولرسوله يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين ﴿ولذي القربى واليتامى والمساكين﴾ أي ولأقرباء الرسول من بني هاشم وعبد المطلب ، ولليتامى الذين مات آباؤهم ، وللمساكين ذوي الحاجة والفقر ﴿وابن السبيل﴾ أي وللغريب المنقطع في سفره قال في التسهيل : لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال ، فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب ، فتلك يؤخذ منها الخمس ويقسم الباقي على الغانمين ، وأما هذه ففي «حكم الفيء» وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال فلا تعارض بينهما ولا نسخ ، وقد قرر الفقهاء الفرق بين الغنيمة والفيء ، وأنَّ حكمهما مختلف ، فالغنيمة ما أُخذت بالقتال ، والفيءُ ما أُخذ صلحاً ، وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء ﴿ما أفاء الله على رسوله﴾ وذكر في الأنفال لفظ الغنيمة ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء﴾[٣] ! ! ﴿كيْ لا يكون دولةً بين الأغنياء منكم﴾ أي لئلا ينتفع بهذا المال ويستأثر به الأغنياء دون الفقراء ، مع شدة حاجة الفقراء للمال قال القرطبي : أي فعلنا ذلك كيلا يتقاسمه الرؤساء والأغنياء بينهم دون الفقراء والضعفاء ، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه ـ وهو المرباعُ ـ ثم يصطفي منها أيضاً ما يشاء[٤] قال المفسرون : إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حينئذٍ فقراء ، ولم يُعط الأنصار منها شيئاً فإنهم كانوا أغنياء ، فقال بعض الأنصار : لنا سهمنا من هذا الفيء فأنزل الله هذه الآية ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ أي ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه ، وما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بكل

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ١٠ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٦٠ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٠٨ . (٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٦ .

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ﴾

خير وصلاح ، وينهى عن كل شرٍّ وفساد قال المفسرون : والآية وإن نزلت في أموال الفيء ، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجبٍ ، أو مندوب ، أو مستحب ، أو محرم ، فيدخل فيها الفيء وغيره[1] ، عن ابن مسعود أنه قال : « لعن اللهُ الواشمات ، والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيِّرات خلق الله » فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يُقال لها « أم يعقوب » ـ وكانت تقرأ القرآن ـ فأتته فقالت : ما حديثٌ بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا ! ! وذكرته له ، فقال ابن مسعود : وما لي لا ألعنُ من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى ؟ فقالت المرأةُ : لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته ! فقال : إن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه ، أما قرأتِ قول الله عز وجل ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[2] ؟ ﴿واتقوا اللهَ﴾ أي خافوا ربكم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إنَّ الله شديد العقاب﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد ، لمن عصاه وخالف ما أمره به ﴿للفقراء الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ هذا متعلقٌ بما سبق من حكم الفيء كأنه يقول : الفيءُ والغنائم لهؤلاء الفقراء المهاجرين الذين ألجأهم كفار مكة إلى الهجرة من أوطانهم ، فتركوا الديار والأموال ، ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وينصرون اللهَ ورسولَه﴾ أي قاصدين بالهجرة إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي هؤلاء الموصوفون بالصفات الحميدة هم الصادقون في إيمانهم قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال ، والأهلين والأوطان ، حباً لله ورسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليُقيم به صُلبه من الجوع[3] . . ثم مدح تعالى الأنصار وبيَّن فضلهم وشرفهم فقال ﴿والَّذين تبوَّءو الدار والإيمان من قبلهم﴾ أي والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وآمنوا قبل كثيرٍ من المهاجرين وهم الأنصار قال القرطبي : أي تبوءوا الدار من قبل المهاجرين ، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه ، والتبوء : التمكن والاستقرار ، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين ، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم[4] ﴿يُحبون من هاجر إليهم﴾ أي يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم قال الخازن : وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم ، وأشركوهم في أموالهم[5] ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٢٨٦ (٢) أخرجه البخاري ومسلم، قال العلماء : الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يُحشى بكحل ، والمستوشمة هي التي تطلب أن يفعل بها ذلك ، والنَّامصة هي التي تنتف الشعر من الوجه ، والمتفلجة هي التي تتكلف تفريج ما بين أسنانها من أجل الحسن ، وكل ذلك منهيٌّ عنه لأن فيه تغييراً لخلق الله .

(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ١٩ . (٤) تفسير القرطبي١٨/ ٢٠ . (٥) تفسير الخازن ٤/ ٦٢ .

﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾

أوتوا﴾ أي ولا يجد الأنصار حزازةً وغيظاً وحسداً مما أعطي المهاجرون من الغنيمة دونهم **قال المفسرون** : إن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثةً منهم ، فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة **﴿ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾** أي يفضلون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه ، فإيثارهم ليس عن غنى عن المال ، ولكنه عن حاجة وفقر ، وذلك غاية الإيثار **﴿ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** أي ومن حماه الله وسلم من البخل فقد أفلح ونجح ، والشُحُّ هو البخل الشديد مع الجشع والطمع ، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها ، قال ابن عمر : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، إنما الشحُّ أن تطمع عينه فيما ليس له[١] وفي الحديث (واتقوا الشُحَّ فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم)[٢] **﴿والذين جاءو من بعدهم﴾** هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين المستحقين للإحسان والفضل ، وهم التابعون لهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة **﴿يقولون ربَّنا اغفرْ لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾** أي يدعون لهم قائلين : يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان **قال أبو السعود** : وصفوهم بالسبق بالإيمان اعترافاً بفضلهم ، لأن أخوة الدين عندهم أعزُّ وأشرف من النسب[٣] **﴿ولا تجعل في قُلوبنا غلاً للّذين آمنوا﴾** أي ولا تجعل في قلوبنا بغضاً وحسداً لأحدٍ من المؤمنين **﴿ربَّنا إنَّك رءُوفٌ رحيم﴾** أي مبالغٌ في الرأفة والرحمة فاستجب دعاءنا ، **قال ابن كثير** : وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الغنيمة شيء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين[٤] ، **وقال شيخ زاده** : بيَّن تعالى أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء ، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجاً عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات ، وقد روي عن الشعبي أنه قال : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة ، سئلت اليهود : من خير أهل ملتكم ؟ فقالوا اصحاب موسى وسئلت النصارى فقالوا : أصحاب عيسى ، وسئلت الرافضة من شرُّ أهل ملتكم ؟ فقالوا : أصحابُ محمدﷺ أُمروا بالاستغفار لهم فسبُّوهم ، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة[٥] . . اللهم ارزقنا محبة أصحاب نبيك الكريم .

* * *

قال الله تعالى :﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم . . إلى . . وهو العزيز الحكيم﴾ من آية (١١) إلى آية (٢٤) نهاية السورة .

---

(١) حاشية الصاوي ٤/ ١٩٠ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٢ .
(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٧٥ . (٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٧ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾

المناسبة : لما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين الصادقين ، أعقبه بذكر أوصاف المنافقين المخادعين ، الذين تركوا نصرة المؤمنين وصادقوا اليهود وحالفوهم على حرب المسلمين ، ثم ذكر البون الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة ، وأنهم لا يستوون في الحال ولا المآل ، وختم السورة الكريمة بذكر بعض أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا .

اللغة : ﴿شتّى﴾ متفرقة تشتَّت جمعهم أي تفرق ﴿خاشعاً﴾ ذليلاً خاضعاً ﴿متصدعاً﴾ متشققاً تصدَّع البنيان أي تشقق ﴿القدوس﴾ المنزَّه عن كل نقص وعيب ﴿المؤمن﴾ المصدّق لرسله بالمعجزات ﴿المهيمن﴾ الرقيب على كل شيء ﴿العزيز﴾ القويُّ الغالب ﴿الجبَّار﴾ العظيم القاهر ، صاحب العظمة والجبروت ﴿المتكبر﴾ المبالغ في الكبرياء والعظمة ﴿البارىء﴾ المبدع المخترع ﴿المصور﴾ خالق الصور .

التفسير : ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا﴾ تعجيبٌ من الله تعالى لرسوله من حال المنافقين أي ألا تعجب يا محمد من شأن هؤلاء المنافقين الذين أظهروا خلاف ما أضمروا ؟ ﴿يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ أي يقولون ليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ ﴿لئن أخرجتم لنخرجنَّ معكم﴾ أي لئن أخرجتم من المدينة لنخرجنَّ معكم منها قال في التسهيل : نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول وقوم من المنافقين ، بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم : اثبتوا في حصونكم فإنا معكم كيف ما تقلبت حالكم[1] ، وإنما جعل المنافقين إخوانهم لأنهم كفار مثلهم ﴿ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ أي ولا نطيع أمر محمد في قتالكم ، ولا نسمع من أحدٍ إذا أمرنا بخذلانكم ﴿وإنْ قوتلتم لننصرنكم﴾ أي ولئن قاتلكم أحد لنعاوننكم على عدوكم ونكون بجانبكم ﴿واللهُ يشهد إنهم لكاذبون﴾ أي والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوه ووعدوهم به . . ثم أخبر الله عن حال المنافقين بالتفصيل فقال ﴿لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم﴾ أي لئن أخرج اليهود لا يخرج المنافقون معهم ﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ أي ولئن قوتل اليهود لا ينصُرهم المنافقون ولا يقاتلون معهم قال القرطبي : وفي هذا دليل على صحة نبوَّة محمد ﷺ من جهة أمر الغيب ، لأنهم أُخرجوا فلم يخرجوا معهم ، وقوتلوا فلم ينصروهم كما أخبر عنه القرآن[2] ﴿ولئن نصروهم ليولُنَّ الأدبار ثم لا يُنصرون﴾ أي ولئن جاءوا لنصرتهم وقاتلوا معهم ـ على سبيل الفرض والتقدير ـ فسوف ينهزمون ، ثم

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٣٤ .

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

لا ينفعهم نصرة المنافقين قال الإمام الفخر : أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لئن أخرجوا فإن المنافقين لا يخرجون معهم ـ وقد كان الأمر كذلك ، فإن بني النضير لما أُخرجوا لم يخرج معهم المنافقون وقُوتلوا كذلك فما نصروهم ـ وأما قوله تعالى ﴿ولئن نصروهم﴾ فهذا على سبيل الفرض والتقدير أي بتقدير أنهم أرادوا نصرتهم لا بدَّ وأن يتركوا تلك النصرة وينهزموا[1] ﴿لأنتم أشدُّ رهبةً في صُدورهم من الله﴾ أي لأنتم يا معشر المسلمين أشدُّ خوفاً وخشيةً في قلوب المنافقين من الله ، فإنهم يرهبون ويخافون منكم أشدَّ من رهبتهم من الله ﴿ذلك بأنهم قومٌ لا يفقهون﴾ أي ذلك الخوف منكم بسبب أنهم لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حقَّ خشيته قال القرطبي : أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته[2] . . ثم أخبر تعالى عن اليهود والمنافقين بأنهم جبناء من شدة الهلع ، وأنهم لا يقدرون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصِّنين في قلاعهم وحصونهم فقال ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلاَّ في قرى مُحصَّنةٍ﴾ أي لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين إلا إذا كانوا في قرى محصَّنة بالأسوار والخنادق ﴿أوْ من وراءِ جُدر﴾ أي أو يكونوا من وراء الحيطان ليتستروا بها ، لفرط جبنهم وهلعهم ﴿بأسهم بينهم شديدٌ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهُم شتَّى﴾ أي تظنهم مجتمعين على أمرٍ ورأي ـ في الصورة ـ ذوي ألفةٍ واتحاد ، وهم مختلفون غاية الاختلاف لأن آراءهم مختلفة ، وقلوبهم متفرقة قال قتادة : أهل الباطل مختلفةٌ آراؤهم ، مختلفة أهواؤهم ، مختلفةٌ شهادتهم ، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق[3] ﴿ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون﴾ أي ذلك التفرق والتشتت بسبب أنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله قال في البحر : وموجب ذلك التفرق والشتات هو انتفاء عقولهم ، فهم كالبهائم لا تتفق على حالة[4] ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ أي صفةُ بني النضير فيما وقع لهم من الجلاء والذل ، كصفةِ كفار مكة فيما وقع لهم يوم بدر من الهزيمة والأسر قال البيضاوي : أي مثل اليهود كمثل أهل بدر ، أو المهلكين من الأمم الماضية في زمان قريب[5] ﴿ذاقوا وبال أمرهم﴾ أي ذاقوا سوء عاقبة إجرامهم في الدنيا ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾ أي ولهم عذاب شديد موجعٌ في الآخرة ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفرْ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال ، كمثل الشيطان الذي أغرى الإنسان بالكفر ثم تخلى عنه وخذله ﴿فلمَّا كفر قال إني بريءٌ منك﴾ أي فلما كفر الإنسان تبرأ منه الشيطان وقال ﴿إني أخافُ اللهَ ربَّ

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٨٩ . (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٣٥ . (٣) تفسير الخازن ٤/ ٦٦ .
(٤) تفسير البحر ٨/ ٢٤٩ . (٥) تفسير البيضاوي ٣/ ٤٧٨ .

﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

العالمين﴾ أي أخاف عذاب الله وانتقامه إن كفرتُ به قال في التسهيل : هذا مثلٌ ، مثَّل اللهُ للمنافقين - الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك - بالشيطان الذي يُغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه ، والمراد بالشيطان والإِنسان هنا الجنس[١] ، وقولُ الشيطان **﴿إني أخاف الله﴾** كذبٌ منه ورياءٌ لأنه لو خاف الله لامتثل أمره وما عصاه[٢] **﴿فكان عاقبتها أنَّهما في النَّار خالدين فيها﴾** أي فكان عاقبة المنافقين واليهود ، مثل عاقبة الشيطان والإِنسان ، حيث صارا إلى النارالمؤبدة **﴿وذلك جزاء الظالمين﴾** أي وذلك عقاب كل ظالم فاجر، منتهكٍ لحرمات الله والدين. . ولمَّا ذكر صفات كلٍ من المنافقين واليهود وضرب لهم الأمثال ، وعظ المؤمنين بموعظةٍ حسنة ، تحذيراً من أن يكونوا مثل من تقدم ذكرهم فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه﴾** أي خافوا الله واحذر واعقابه ،بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه **﴿ولتنظر نفسٌ ما قدَّمت لِغدٍ﴾** أي ولتنظر كلُّ نفسٍ ما قدَّمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة قال ابن كثير : انظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم[٣] ، وسُمي يوم القيامة غداً لقرب مجيئه **﴿وما أمرُ الساعة إلا كلمح البصر﴾** والتنكير فيه للتفخيم والتهويل[٤] **﴿واتقوا اللهَ﴾** كرَّره للتأكيد ولبيان منزلة التقوى التي هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين **﴿ولقد وصَّينا الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم وإِياكم أنْ اتقوا اللَّه﴾** **﴿إن الله خبيرٌ بما تعملون﴾** أي مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها **﴿ولا تكونوا كالَّذين نسُوا اللَّه فأنساهم أنفُسهم﴾** أي ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تركوا ذكر الله ومراقبته وطاعته ، فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها بما يصلحها قال أبو حيان : وهذا من المجازاة على الذنب بالذنب ، تركوا عبادة الله وامتثال أوامره ، فعوقبوا على ذلك بأن أنساهم حظَّ أنفسهم[٥] ، حتى لم يقدموا له خيراً ينفعها **﴿أولئك هم الفاسقون﴾** أي أولئك هم الفجرة الخارجون عن طاعة الله **﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾** أي لا يتساوى يوم القيامة الأشقياء والسعداء ، أهل النار وأهل الجنة في الفضل والرتبة **﴿أصحابُ الجنة هم الفائزون﴾** أي أصحاب الجنة هم الفائزون بالسعادة الأبدية في دار النعيم ، وذلك هو الفوز العظيم . . ثم ذكر تعالى روعة القرآن ، وتأثيره على الصمِّ الراسيات من الجبال

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٠ . (٢) قال ابن كثير : أي مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، كمثل الشيطان إذ سوَّل للإنسان الكفر ثم تبرأ منه وتنصل وقال إني أخاف الله رب العالمين.المختصر ٣/ ٤٧٦ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٧ . (٤) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٤ . (٥) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥١ .

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فقال ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً مُتصدِّعاً من خشيةِ اللّه﴾ أي لو خلقنا في الجبل عقلاً وتمييزاً كما خلقنا للإنسان ، وأنزلنا عليه هذا القرآن ،بوعده ووعيده ، لخشع وخضع وتشقق ، خوفاً من الله تعالى، ومهابةً له وهذا تصويرٌ لعظمة قدر القرآن، وقوة تأثيره، وأنه بحيث لو خوطب به جبلٌ ـ على شدته وصلابته ـ لرأيته ذليلاً متصدعاً من خشية الله ، والمراد منه توبيخ الإنسان بأنه لا يتخشع عند تلاوة القرآن ، بل يعرض عما فيه من عجائب وعظائم ، فهذه الآية في بيان عظمة القرآن ، ودناءة حال الإنسان[1] وقال في البحر : والغرضُ توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وعدم تأثره بهذا الذي لو أُنزل على الجبل لتخشَّع وتصدَّع ، وإذا كان الجبل على عظمته وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع ، فابن آدم كان أولى بذلك ، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر[2] ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ أي وتلك الأمثال نفصّلها ونوضحها للناس لعلهم يتفكرون في آثار قدرة الله ووحدانيته فيؤمنون . . ثم لما وصف القرآن بالرفعة والعظمة ، أتبعه بشرح عظمة الله وجلاله فقال ﴿هو اللهُ الذي لاَ إلهَ إلا هو﴾ أي هو جلَّ وعلا الإله المعبود بحقٍ لا إله ولا رب سواه ﴿عالم الغيبِ والشهادة﴾ أي عالم السر والعلن ، يعلم ما غاب عن العباد مما لم يبصروه ، وما شاهدوه وعلموه ﴿هو الرحمنُ الرحيمُ﴾ أي هو تعالى ذو الرحمة الواسعة في الدنيا والآخرة ﴿هو اللهُ الذي لا إله إلا هو﴾ كرر اللفظ اعتناءً بأمر التوحيد أي لا معبود ولا رب سواه ﴿الملِكُ﴾ أي المالك لجميع المخلوقات ، المتصرف في خلقه بالأمر والنهي ، والإيجاد والإعدام ﴿القُدُّوس﴾ أي المنزَّه عن القبائح وصفات الحوادث قال في التسهيل : القُدُّوسُ مشتقٌ من التقديس وهو التنزه عن صفات المخلوقين ، وعنَ كلِ نقص وعيب ، والصيغة للمبالغة كالسبُّوح[3] ، وقد ورد أن الملائكة تقول في تسبيحها : « سبُّوح قُدُّوس ، ربُّ الملائكة والروح » ﴿السَّلام﴾ أي الذي سلم الخلق من عقابه ، وأمنوا من جوره ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ وقال البيضاوي : أي ذو السلامة من كل نقص وآفة ، وهو مصدر وصف به للمبالغة[4] ﴿المؤمنُ﴾ أي المصدِّق لرسله بإظهار المعجزات على أيديهم ﴿المهيمن﴾ أي الرقيبُ الحافظ لكل شيء وقال ابن عباس : الشهيد على عباده بأعمالهم الذي لا يغيب عنه شيء[5] ﴿العزيز﴾ أي القادر القاهر الذي لا يُغلب ولا يناله ذل ﴿الجبَّار﴾ أي القهار العالي الجناب الذي يذل له من دونه قال ابن عباس : هو العظيم الذي إذا أراد أمراً فعله ، وجبروتُ الله عظمته[6] ﴿المتكبر﴾ أي الذي له الكبرياء حقاً ولا تليق إلا به وفي الحديث القدسي (العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني فيهما قصمته

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٧٩ . (٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥١ .
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١١ . (٤) تفسير الخازن ٤/ ٧٢ . (٥) تفسير القرطبي ١٨/ ٤٧ . (٦) تفسير الخازن ٤/ ٧٢

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

ولا أبالي)[1] قال الإمام الفخر: واعلم أن المتكبر في صفة الناس صفة ذم، لأن المتكبر هو الذي يُظهر من نفسه الكِبْر، وذلك نقصٌ في حق الخلق، لأنه ليس له كبر ولا علو، بل ليس له إلا الذلة والمسكنة، فإذا أظهر العلو كان كاذباً فكان مذموماً في حق الناس، وأما الحقُّ سبحانه فله جميع أنواع العلو والكبرياء، فإذا أظهره فقد أرشد العباد إلى تعريف جلاله وعظمته وعلوه، فكان ذلك في غاية المدح في حقه جل وعلا[2]، ولهذا قال في آخر الآية ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ أي تنزَّه الله وتقدَّس في جلاله وعظمته، عمَّا يلحقون به من الشركاء والأنداد ﴿هو الله الخالق البارئ﴾ أي هو جل وعلا الإله الخالق لجميع الأشياء، الموجد لها من العدم، المنشئ لها بطريق الاختراع ﴿المصوِّر﴾ أي المبدع للأشكال على حسب إرادته ﴿هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء﴾ قال الخازن: أي الذي يخلق صورة الخلق على ما يريده[3] ﴿له الأسماء الحُسْنى﴾ أي له الأسماء الرفيعة الدالة على محاسن المعاني ﴿يسبح له ما في السموات والأرض﴾ أي ينزهه تعالى عن صفات العجز والنقص جميع ما في الكون بلسان الحال أو المقال قال الصاوي: ختم السورة بالتسبيح كما ابتدأها به إشارة إلى أنها المقصود الأعظم، والمبدأ والنهاية، وأن غاية المعرفة بالله تنزيه عظمته عما صورته العقول[4] ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه وصنعه.

البَلاَغَة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - طباق السلب ﴿ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾.

٢ - المقابلة اللطيفة بين ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ وبين ﴿وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

٣ - وضع الضمير بين المبتدأ والخبر لإفادة الحصر ﴿أولئك هم الصادقون﴾.

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿تبوءوا الدار والإيمان﴾ شبَّه الإيمان المتمكن في نفوسهم، بمنزلٍ ومستقرٍ للإنسان نزل فيه وتمكَّن منه حتى صار منزلاً له، وهو من لطيف الاستعارة.

٥ - الاستفهام الذي يراد به الإنكار والتعجيب ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا..﴾ الآية.

٦ - الطباق بين جميعاً وشتى في قولهم ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتَّى﴾.

٧ - التشبيه التمثيلي ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر..﴾ وجه الشبه منتزع من متعدد.

(١) تفسير القرطبي ١٨/٤٧ (٢) التفسير الكبير ٢٩/٢٩٤. (٣) تفسير الخازن ٤/٧٣. (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/١٩٤.

٨ ـ الكناية اللطيفة ﴿ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ﴾ كنَّى عن القيامة بالغد لقربها .

٩ ـ الطباق بين ﴿الغيب . . والشهادة﴾ وبين ﴿الجنة . . والنار﴾ الخ .

لطيفــــة : أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إني مجهود ـ أي اشتد بي الجوع والفاقة ـ فأرسل إلى بعض نسائه يسألها هل عندك شيء ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء ، ثم أرســل إلى أُخرى فقالت مثل ذلك ، وقلن كلهن مثل ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : من يضيفه هذه الليلة يرحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار يقال له « أبو طلحة » فقال : أنا يا رسول الله ! ! فانطلق به إلى رحله ـ أي إلى منزله ـ فقال لها : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخري عنه شيئاً وأكرميه ، فقالت : ما عنــدي إلا قوتُ الصبيان ، فقال علّليهم بشيءٍ ونوِّميهم ، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا نأكل ثم قومي إلى السراج كي تصلحيه فأطفئيه ، ففعلت فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين ، فلما أصبح غدا على رسول الله ﷺ فلما نظر إليه رسول الله ﷺ تبسم ، ثم قال : لقد عجب الله من صنيعكما الليلة بصاحبكما وأنزل الله ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . .﴾ الآية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحشر »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* **هذه السورة** الكريمة من السور المدنية ، التي تهتم بجانب التشريع ، ومحورُ السورة يدور حول فكرة « الحبِّ والبغض في الله » الذي هو أوثق عُرى الإيمان ، وقد نزل صدر السورة عتاباً لحاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتاباً لأهل مكة يخبرهم أن الرسول ﷺ قد تجهز لغزوهم ، كما ذكر تعالى حكم موالاة أعداء الله ، وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرؤهم من المشركين ، وبيَّن حكم الذين لم يقاتلوا المسلمين ، وحكم المؤمنات المهاجرات وضرورة امتحانهن ، وغير ذلك من الأحكام التشريعية .

* **ابتدأت السورة** الكريمة بالتحذير من موالاة أعداء الله ، الذين آذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . .﴾ الآيات .

* **ثم بينت السورة** أنَّ القرابة والنسب والصداقة في هذه الحياة لن تنفع الإنسان أبداً يوم القيامة ، حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة . .﴾ الآيات .

* **ثم ضربت المثل** في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين ، حين تبرءوا من قومهم المشركين ، ليكون ذلك حافزاً لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ﴿قد كانت لكم أسوة حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً . .﴾ الآيات .

* **وتحدثت السورة** عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتسقطوا إليهم . .﴾ وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين . .﴾ الآيات .

* **وبينت السورة** وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة ، وعدم ردهنَّ إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن ، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر ، ثم حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ وشروط هذه البيعة ﴿يا أيها

الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجراتٍ فامتحنوهن . . ﴾ الآيات وقوله ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً . . ﴾ الآيات .

* وختمت السورة بتحذير المؤمنين من موالاة أعداء الله الكافرين ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالاة أعداء الله ، ليتناسق الكلام في البدء والختام .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . . إلى . . كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ من آية (١) إلى آية (١٣) نهاية السورة .

اللغَة : ﴿أولياء﴾ أصدقاء وأحباء جمع وليّ وهو الصديق والناصر والمعين ﴿يثقفوكم﴾ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، وأصل الثقف الحذقُ في إدراك الشيء وفعله ، ومنه قولهم « رجلٌ ثقِف لقِف » ثم استعمل في الظفر والإدراك مطلقاً[١] ﴿أُسوة﴾ قدوة يقتدى به ﴿أرحامكم﴾ جمع رحم وهو في الأصل رحم المرأة ، واشتهر في القرابة حتى صار كالحقيقة فيها ﴿ظاهروا﴾ أعانوا ﴿عِصَم﴾ جمع عِصْمة وهي ما يعتصم ويتمسك به الإنسان من حبلٍ أو عقد والمراد به هنا عقد النكاح ﴿الكوافر﴾ جمع كافرة وهي التي لا تؤمن بالله .

سَبَبُ النّزول : لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة ، كتب « حاطب بن أبي بلتعة » إلى أهل مكة يخبرهم بذلك وقال لهم : إن رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم ، ثم أرسل الكتاب مع ظعينةٍ - أي امرأةٍ مسافرة - فنزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ علياً ، والزبير ، والمقداد وقال : « انطلقوا حتى تأتوا « روضة خاخ »[٢] فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به » فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا لها أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي من كتاب ، فقلنا لها : لتخرجنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثياب فأخرجته من عِقاصها[٣] ، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ : ما هذا يا حاطب ؟ فقال يا رسول الله : لا تعجل عليَّ إني كنت أمرءاً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قراباتٌ يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلتُ ذلك كفراً وارتداداً عن ديني ، فقال عمر ، دعني يا رسول الله أضربُ عنق هذا المنافق ! ! فقال عليه الصلاة والسلام : إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء . . ﴾ الآية[٤] .

(١) تفسير الألوسي ٢٨/٦٨ . (٢) روضة خاخ مكان على بعد قليل من المدينة . (٣) عقاصها : ضفائر شعرها .
(٤) أخرجه الشيخان وانظر روح المعاني ٢٨/ ٦٥ والقرطبي ١٨/ ٥٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ②﴾

التفسير : ﴿يا أيها الَّذين آمنوا لا تتَّخذوا عدُوي وعدوكم أولياء﴾ أي يا معشر المؤمنين ، يا من صدقتم بالله ورسوله ، لا تتخذوا الكفار الذين هم أعدائي وأعداؤكم أصدقاء وأحباء ، فإنَّ من علامة الايمان بغض أعداء الله لا مودتهم وصداقتهم قال في التسهيل : نزلت عتاباً لحاطب وزجراً عن أن يفعل أحد مثل فعله ، وفيها مع ذلك تشريفٌ له لأن الله شهد له بالايمان في قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾[1] ﴿تُلقون إليهم بالمودَّة﴾ أي تحبونهم وتودونهم وتصادقونهم مع أنهم أعداء ألداء لكم قال القرطبي : أي تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لهم[2] ﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ﴾ أي والحال أنهم كافرون بدينكم وبقرآنكم الذي أنزله الله عليكم بالحق الواضح ﴿يُخرجون الرَّسول وإياكم﴾ أي يخرجون محمداً من مكة ظلماً وعدواناً كما يخرجون أيضاً منها المؤمنين قال في البحر : وقدَّم الرسول تشريفاً له ولأنه الأصلُ للمؤمنين[3] ، ومعنى إخراجهم أنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهاجرين إلى المدينة ﴿أنْ تُؤمنوا بالله ربكم﴾ أي من أجل أنكم آمنتم بالله الواحد الأحد كقوله ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ ﴿إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيل الله طلباً لرضوانه فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء قال الألوسي : وجوابُ الشرط محذوف دلَّ عليه ما تقدم كأنه قيل : لا تتخذوا أعدائي إن كنتم أوليائي[4] ﴿تُسرُّون إليهم بالمودَّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ أي تسرون إليهم بالنصيحة وأنا العالم بسريرتكم وعلانيتكم ، لا يخفى عليَّ شيءٌ من أحوالكم ؟ والغرض منه التوبيخُ والعتاب ﴿ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾ أي ومن يصادق أعداءالله ،ويفش أسرار الرسول ، فقد حاد عن طريق الحق والصواب . . ثم أخبر تعالى المؤمنين بعداوة الكفار الشديدة لهم ، المستحكمة في قلوبهم فقال ﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء﴾ أي إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم ، يُظهروا ما في قلوبهم من العداوة الشديدة لكم ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ أي يمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل ، وألسنتهم بالشتم

(١) التسهيل ١١٢/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٥٢/١٨ . (٣) تفسير البحر المحيط ٢٥٣/٨ . (٤) تفسير الألوسي ٦٧/٢٨ .

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾

والسبٌ ﴿وودُّوا لـو تكفـرون﴾ أي وقد تمنوا أن تكفروا لتكونوا مثلهم قال الزمخشري : وإنما أورده بذكر الماضي ﴿وودوا﴾ بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع ﴿لو تكفرون﴾ لأنهم أرادوا كفرهم قبل كل شيء[1] كقوله تعالى ﴿ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً﴾ ﴿لـن تنفعكـم أرحامكـم ولا أولادكم﴾ أي لن تفيدكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون الكفار من أجلهم يوم القيامة شيئاً ، فلن يجلبوا لكم نفعاً ، ولن يدفعوا عنكم ضرُّاً قال الصاوي : هذا تخطئةٌ لحاطب في رأيه كأنه قال : لا تحملكم قراباتكم وأولادكم الذين بمكة ، على خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين ، ونقل أخبارهم وموالاة أعدائهم ، فإنه لا تنفعكم الأرحام ولا الأولاد الذين عصيتم الله من أجلهم[2] ﴿يـومَ القيامـة يفْصـل بينكـم﴾ أي في ذلك اليوم العصيب ، يحكم الله بين المؤمنين والكافرين ، فيدخل المؤمنين جنات النعيم ، ويدخل المجرمين دركات الجحيم ﴿واللّـهُ بمـا تعملـون بصيـر﴾ أي مطَّلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليهـا ﴿قـد كانـت لكـم أُسـوةٌ حسنـةٌ في إبراهيم والذيـن معه﴾ أي قد كان لكم يا معشر المؤمنين قُدوة حسنةٌ في الخليل إبراهيم ومن معه من المؤمنين ﴿إذْ قالـوا لقومهـم إنَّـا بُرءَاءُ منكـم وممَّـا تعبـدون من دونِ اللّـه﴾ أي حين قالوا للكفار إننا متبرءون منكم ومن الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿كفرنـا بكـم﴾ أي كفرنا بدينكم وطريقتكم ﴿وبـدا بيننـا وبينكـم العداوة والبغضـاء أبـداً﴾ أي وظهرت بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء إلى الأبد ما دمتم على هذه الحالة ﴿حتـى تؤمنـوا باللـه وحده﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده ، وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك والأوثان قال المفسرون : أمر الله المؤمنين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة المشركين والتبرؤ منهم ، لأن الإيمان يقتضي مقاطعة أعداء الله وبغضهم ﴿إلا قـول إبراهيـم لأبيـه لأستغفرنَّ لـك﴾ أي إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تقتدوا به ، فإنه إنما استغفر لأبيه المشرك رجاء إسلامه ﴿فلمـا تبيَّـن لـه أنه عدوٌ للّـه تبرأ منه﴾ ﴿ومـا أملِـكُ لـك مـن اللـه مـن شيءٍ﴾ هذا من تتمة كلام إبراهيم لأبيه أي ما أدفع عنك من عذاب الله شيئاً إن أشركت به ، ولا أملك لك شيئاً غير الاستغفار ﴿ربَّنـا عليـكَ توكلنـا﴾ أي عليك اعتمدنا في جميع أمورنا ﴿وإليـك أنبنـا﴾ أي وإليك رجعنا وتبنا ﴿وإليـك المصيـر﴾ أي وإليك المرجع والمعاد في الدار الآخرة قال المفسرون : إن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار كما في سورة مريم قال ﴿سأستغفر لك ربـي إنه كان بي حفياً﴾ واستغفر له بالقول فعلاً كما في

(١) الكشاف ٤/ ٢٩٥ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ١٩٥ .

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ * عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾

سورة الشعراء ﴿واغفرْ لأبي إنه كان من الضالين﴾ وكلُّ هذا كان رجاء إسلامه . ثم رجع عن ذلك لَمَّا تيقَّن كفره كما في سورة التوبة ﴿وما كان استغفارُ إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدةٍ وعدها إيَّاه . فلما تبيَّن له أنه عدوٌ للّهِ تبرأ منه﴾ ﴿ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا بعذاب لا نطيقه[1] وقال مجاهد : أي لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذابٍ من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على الحق لما أصابهم ذلك ﴿واغفر لنا﴾ أي اغفر لنا ما فرط من الذنوب ﴿ربنا إنك أنتَ العزيزُ الحكيم﴾ أي أنت يا ألله الغالب الذي لا يذل من التجأ إليه ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة ، وتكرار النداء للمبالغة في التضرع والجؤار . ﴿لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ﴾ أي لقد كان لكم في إبراهيم ومن معه من المؤمنين قدوةٌ حسنة في التبرؤ من الكفار قال أبو السعود : والتكريرُ للمبالغة في الحثّ على الاقتداء به عليه السلام ولذلك صُدِّر بالقسم[2] ﴿لمن كان يرجو اللّهَ واليومَ الآخر﴾ أي لمن كان يرجو ثواب الله تعالى ، ويخاف عقابه في الآخرة ﴿ومن يتولَّ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ الحميدُ﴾ أي ومن يُعرض عن الايمان وطاعة الرحمن ، فإن الله مستغنٍ عن أمثاله وعن الخلق أجمعين ، وهو المحمود في ذاته وصفاته ﴿عسى اللّهُ أنْ يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودَّةً﴾ أي لعلَّ الله جل وعلا يجعل بينكم وبين الذين عاديتموهم من أقاربكم المشركين محبةً ومودة ، محبةً بعد البغضاء ، وألفة بعد الشحناء قال في التسهيل : لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم ، على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة والمودة ، وعلم الله صدقهم آنسهم بهذه الآية ، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة أي محبة ، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذٍ سائر قريش[3] ، وجمع الله الشمل بعد التفرق وقال الرازي : وعسى وعدٌ من الله تعالى وقد حقق تعالى ماوعدهم به من اجتماع كفار مكة بالمسلمين ، ومخالطتهم لهم حين فتح مكة[4] ﴿والله قديرٌ﴾ أي قادر لا يعجزه شيء ، يقدر على تقليب القلوب وتغيير الأحوال ﴿واللهُ غفورٌ رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأناب ﴿لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم﴾ أي لا ينهاكم عن البر بهؤلاء الذين لم يحاربوكم لأجل دينكم ، ولم يخرجوكم من أوطانكم كالنساء والصبيان ، ولفظة ﴿أنْ تبرُّوهم﴾ في موضع جر بـ « عن » أي لا ينهاكم جلَّ وعلا عن البر والإحسان لهؤلاء ﴿وتُقْسطوا إليهم﴾ أي تعدلوا معهم ﴿إنَّ

(١) القول الأول مروي عن ابن عباس ، والثاني قول مجاهد والأول هو الأرجح لأنه دعاءٌ لأنفسهم بعدم تمكين الكفار من رقابهم ، وهو اختيار ابن عطية . (٢) تفسير أبي السعود ١٥٧/٥ . (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١١٤/٤ . (٤) التفسير الكبير ٣٠٣/٢٩ .

﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا﴾

اللهَ يحبُ المقسطين﴾ أي يحب العادلين في جميع أمورهم وأحكامهم قال ابن عباس : نزلت في خزاعة ، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً ، فرخَّص الله في برهم والإحسان إليهم[1] . . وروي عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : قدمت أمي ـ وهي مشركة ـ في عهد قريش حين عاهدوا رسول الله ﷺ ـ تعني في صلح الحديبية ـ فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله : إن أمي قدمتْ وهي راغبة أفأصلها ؟ قال : نعم صِلي أمك[2] ، فأنزل الله ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين . .﴾ الآية ﴿إنما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوهم﴾ أي إنما ينهاكم الله عن صداقة ومودة الذين ناصبوكم العداوة ، وقاتلوكم لأجل دينكم ، وأعانوا أعداءكم على إخراجكم من دياركم ، أن تتولَّوهم فتتخذوهم أولياء وأنصاراً وأحباباً ﴿ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون﴾ أي ومن يصادق أعداء الله ويجعلهم أنصاراً وأحباباً ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهنَّ﴾ أي اختبروهنَّ لتعلموا صدق إيمانهنَّ قال المفسرون : كان صلح الحديبية الذي جرى بين رسول الله ﷺ وكفار مكة قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يُردَّ إليهم ، ومن أتى المسلمين من أهل مكة ـ يعني المشركين ـ رُدَّ إليهم ، فجاءت « أم كلثوم » بنت عقبة بن أبي مُعيط مهاجرة إلى رسول الله ﷺ ، فخرج في أثرها أخواها « عُمارة » و« الوليد » فقالوا للنبي ﷺ : رُدَّها علينا بالشرط ، فقال ﷺ : كان الشرطُ في الرجال لا في النساء ، فأنزل الله الآية ، قال ابن عباس : كانت المرأة تُستحلف أنها ما هاجرت بغضاً لزوجها ، ولا طمعاً في الدنيا ، وأنها ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ، ورغبةً في دين الإسلام[3] ﴿اللهُ أعلمُ بإيمانهنَّ﴾ أي الله أعلم بصدقهن في دعوى الإيمان ، لأنه تعالى المطّلع على قلوبهن ، والجملة اعتراضية لبيان أن هذا الامتحان بالنسبة للمؤمنين ، وإلا فالله عالمٌ بالسرائر لا تخفى عليه خافية ﴿فإنْ علمتموهنَّ مؤمناتٍ فلا ترجعوهنَّ إلى الكفَّار﴾ أي فإن تحققتم إيمانهن بعد امتحانهن فلا تردوهنَّ إلى أزواجهن الكفار ﴿لا هُنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلُّون لهنَّ﴾ أي لا تحل المؤمنة للمشرك ، ولا يحل للمؤمن نكاح المشركة قال الألوسي : والتكرير للتأكيد والمبالغة في الحرمة وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرك[4] ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ أي أعطوا أزواجهن الكفار ما أنفقوا عليهن من المهور قال في البحر :

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٣٠٤ . (٢) أخرجه الشيخان وأحمد . (٣) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥٦ . (٤) تفسير الألوسي ٢٨/ ٧٦ .

مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ

أمر أن يُعطى الزوج الكافر ما أنفق على زوجته إذا أسلمت ، فلا يجمع عليه خُسران الزوجة والمالية[1] ﴿ولا جُناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي ولا حرج ولا إثم عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا دفعتم لهن مهورهن **قال الخازن** : أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام وإن كان لهن أزواج كفار ـ لأن الإسلام فرّق بينهن وبين أزواجهن الكفار ، وتقع الفرقة بانقضاء عدتها[2] ﴿ولا تُمسكوا بعصم الكوافر﴾ أي ولا تتمسكوا بعقود زوجاتكم الكافرات . فليس بينكم وبينهن عصمة ولا علاقة زوجية **قال القرطبي** : المراد بالعصمة هنا النكاحُ ، يقول : من كانت له امرأةٌ كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين[3] ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾ أي اطلبو يا أيها المؤمنون ما أنفقتم من المهر إذا لحقتْ أزواجكم بالكفار ، وليطلبوا هم ـ أي المشركون ـ ما أنفقوا على أزواجهم المهاجرات **قال ابن العربي** : كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين إذا جاءت إحدى الكافرات مسلمةً مهاجرة : ردُّوا إلى الكفار مهرها ، وكان ذلك نَصَفاً وعدلاً بين الحالتين[4] ﴿ذلكم حُكْم اللّه يحكمُ بينكم﴾ أي ذلكم هو شرعُ الله وحكمه العادل بينكم وبين أعدائكم ﴿واللهُ عليمٌ حكيم﴾ أي عليم بمصالح العباد ، حكيم في تشريعه لهم ، يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة ﴿وإن فاتكم شيءٌ من أزواجكم إلى الكفار﴾ أي وإن فرَّت زوجة أحدٍ من المسلمين ولحقت بالكفار ﴿فعاقبتم﴾ أي فغزوتم وغنمتم وأصبتم من الكفار غنيمة ﴿فآتوا الذين ذهبتْ أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ أي فأعطوا لمن فرَّت زوجته ، مثل ما أنفق عليها من المهر ، من الغنيمة التي بأيديكم **قال ابن عباس** : يعني إن لحقت امرأة رجلٍ من المهاجرين بالكفار ، أمر له رسولُ الله ﷺ أن يُعطى مثل ما أنفق من الغنيمة[5] **قال القرطبي** : لما نزلت الآية السابقة ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾ قال المسلمون : رضينا بما حكم اللهُ . وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت هذه الآية[6] ﴿واتَّقوا اللّه﴾ أي وراقبوا اللهَ في أقوالكم وأفعالكم . واحذروا عذابه وانتقامه إن خالفتم أوامره ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ أي الذي آمنتم وصدقتم بوجوده . فإن من مستلزمات الإيمان تقوى الرحمن . . ولما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يُبايعنه على الإسلام ، كما بايعه الرجال فنزلت ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمناتُ يُبايعنك على أنْ لا يُشركن باللّهِ شيئاً﴾ أي إذا جاء إليك النساء المؤمنات للبيعة فبايعْهنّ على هذه الأمور الستة الهامة ، وفي مقدمتها عدم الإشراك بالله

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٥٧ . (٢) تفسير الخازن ٤/ ٧٩ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٦٥ . (٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٦٨ .
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٦ . (٦) تفسير القرطبي ١٨/ ٦٨ ثم نقل القرطبي عن قتادة ان هذا الحكم قد نسخ بسورة براءة .

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

جلَّ وعلا ﴿ولا يسرقْن ولا يزنين﴾ أي ولا يرتكبن جريمة السرقة ولا جريمة الزنى ، التي هي من أفحش الفواحش ﴿ولا يقتُلنَ أولادهنَّ﴾ أي ولا يئدن البنات كما كان يفعله أهل الجاهلية خوف العار أو خشية الفقر ، قال ابن كثير : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق أو العار ، ويعمُّ قتله وهو جنينٌ كما يفعله بعض النساء الجاهلات ، تُطرح نفسها لئلا تحبل ، إمّا لغرضٍ فاسد أو ما أشبهه[1] ﴿ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بينَ أيديهنَّ وأرجُلهنَّ﴾ أي لا تنسب إلى زوجها ولداً لقيطاً ليس منه تقول له : هذا ولدي منك قال المفسرون : كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل ، التقطت ولداً ونسبته له ليبقيها عنده ، فالمراد بالآية اللقيط ، وليس المراد الزنى لتقدمه في النهي صريحاً[2] قال ابن عباس : لا تُلحق بزوجها ولداً ليس منه ، وقال الفراء : كانت المرأة تلتقطُ المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك ، وإنما قال ﴿يفترينه بين أيديهنَّ وأرجلهنَّ﴾ لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها[3] ﴿ولا يعصينكَ في معروفٍ﴾ أي ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهنَّ به من معروف ، أو نهيتهن عنه من منكر، بل يسمعن ويطعن ﴿فبايعهنَّ واستغفر لهنَّ اللهَ﴾ أي فبايعهن يا محمد على ما تقدم من الشروط ، واطلب لهنَّ من الله الصفح والغفران لما سلف من الذنوب ﴿إنَّ الله غفور رحيم﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة قال أبو حيان : كانت « بيعة النساء » في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا ، بعدما فرغ من بيعة الرجال ، وكان رسول الله ﷺ على الصفا وعمر أسفل منه ، يبايعهنَّ بأمره ويبلغهنَّ عنه ، وما مست يده عليه الصلاة والسلام يد امرأةٍ أجنبيةٍ قطُّ ، وقالت « أسماء بنتُ السكن » : كنتُ في النسوة المبايعات ، فقلت يا رسول الله : أبسط يدك نبايعك ، فقال لي عليه الصلاة والسلام : (إني لا أصافح النساء ، لكنْ آخذُ عليهنَّ ما أخذ اللهُ عليهنَّ) وكانت « هند بنت عُتبة » - وهي التي شقت بطن حمزة يوم أحد - متنكرة في النساء ، فلما قرأ عليهن الآية ﴿على ألاّ يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن﴾ قالت وهي متنكرة يا رسول الله : إن أبا سفيان رجل شحيح ، وإني لأصيب الهنة - أي القليل وبعض الشيء - من ماله ، لا أدري أيحل لي ذلك أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبتِ من شيءٍ فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال لها : وإنك لهندٌ بنتُ عتبة ؟ قالت نعم فاعفُ عما سلف يا نبيَّ الله ، عفا الله عنك ، فلما قرأ ﴿ولا يزنين﴾ قالت : أو تزني الحُرة ؟ فلما قرأ ﴿ولا يقتلن أولادهنَّ﴾ قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة قد قُتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله ﷺ فلما قرأ ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٩ . (٢) انظر حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٠٠ وتفسير أبي السعود ٥/ ١٥٨ وتفسير الرازي ٢٩/ ٣٠٨ . (٣) روح المعاني للألوسي ٢٨/ ٨٠ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

وأرجلهن﴾ قالت هند : والله إن البهتان لأمرٌ قبيح ، ولا يأمر اللهُ إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فلما قرأ ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ قالت : واللهِ ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء[1] وأخرج الإمام أحمد عن « أميمة بنت رقيقة » ـ أخت السيدة خديجة وخالة فاطمة الزهراء ـ قالت : أتيتُ رسول الله ﷺ في نساءٍ لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن ﴿ألاَّ نشرك بالله شيئاً﴾ الآية وقال : (فيما استطعتنَّ وأطقتُنَّ) فقلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا يا رسول الله : ألا تصافحنا ؟ قال : « إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لامرأةٍ واحدة قولي لمائة امرأة »[2] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولَّوا قوماً غضب اللهُ عليهم﴾ أي لا تصادقوا يا معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين ، ولا تتخذوهم أحباء وأصدقاء توالونهم وتأخذون بآرائهم ، فإنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم قال الحسن البصري : هم اليهود لقوله تعالى ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وقال ابن عباس : هم كفار قريش لأن كل كافر عليه غضبٌ من الله[3] ، والظاهر أن الآية عامة كما قال ابن كثير : يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار ، ممن غضب الله عليه ولعنه[4] ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾ أي أولئك الفجار الذين يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها ﴿كما يئسَ الكفار من أصحاب القبور﴾ أي كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور ، من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا ، فقد كانوا يقولون إذا مات لهم قريب أو صديق : هذا آخر العهد به ، ولن يبعث أبداً[5] . . ختم تعالى السورة الكريمة بمثل ما فتحها به وهو النهي عن موالاة الكفار أعداء الله ، وهو بمثابة التأكيد للكلام ، وتناسق الآيات في البدء والختام ، وهو من البلاغة في مكان .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البديع والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق في قوله ﴿وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ لأن الإخفاء يطابق الإعلان .

٢ ـ العتاب والتوبيخ ﴿تُسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم . .﴾ الآية .

٣ ـ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الصيغة للحصر ﴿ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير﴾ ، والأصل توكلنا عليك ، وأنبنا إليك . . الخ .

٤ ـ صيغة المبالغة ﴿قدير ، غفور ، رحيم﴾ وهو كثير في القرآن ومثله ﴿عليم حكيم﴾ .

---

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٥٨ وانظر التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٣٠٧ . (٢) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي . (٣) البحر المحيط ٨/ ٢٥٩ . (٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩٠ .

(٥) هذا هو الراجح في تفسير الآية الكريمة وهو خلاصة قول ابن عباس وقتادة والحسن ، وقال مجاهد معناه أنهم يئسوا من نعيم الآخرة كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير ، والأول أظهر والله أعلم .

٥ ـ طباق السلب ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم﴾ ثم قال ﴿إنما ينهاكم الله . . ﴾ الآية .

٦ ـ الجملة الاعتراضية ﴿اللهُ أعلم بإيمانهن﴾ للإشارة إلى أن للإنسان الظاهر والله يتولى السرائر .

٧ ـ العكسُ والتبديلُ ﴿لا هنَّ حلٌّ لهم ، ولا هم يحلّون لهنَّ﴾ وهو من أنواع البديع .

٨ ـ الكناية اللطيفة ﴿ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجلهن﴾ كنَّى بذلك عن اللقيط ، وهي من لطائف الكنايات .

٩ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ كما أن فيه من المحسنات البديعية ما يسمى رد العجز على الصدر ، حيث ختم السورة بمثل ما ابتدأها ليتناسق البدء مع الختام .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الممتحنة »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الصف هي إحدى السور المدنية ، التي تُعنى بالأحكام التشريعية ، وهذه السورة تتحدث عن موضوع « القتال » وجهاد أعداء الله ، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وعن التجارة الرابحة التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة ، ولكنَّ المحور الذي تدور عليه السورة هو «القتال»، ولهذا سميت سورة الصف .

* ابتدأت السورة الكريمة ـ بعد تسبيح الله وتمجيده ـ بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد ، وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿سبَّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم • يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ ؟

* ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته ، لأنه يقاتل من أجل غرضٍ نبيل ، وهو رفع منار الحق ، وإعلاء كلمة الله ﴿إنَّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ .

* وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام ، وما أصابهما من الأذى في سبيل الله ، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني . .﴾ الآيات .

* وتحدثت السورة عن سنة الله في نصرة دينه ، وأنبيائه ، وأوليائه ، وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله ، بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقير ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ .

* ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة ، وحرضتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس ، لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصرة العاجلة في الدنيا ، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم • تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله . .﴾ الآيات .

* وختمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصرة دين الرحمن ، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصرة دين الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله . .﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام .

* * *

قال الله تعالى : ﴿سبِّح لله ما في السمواتِ وما في الأرض . . إلى . . ولو كره المشركون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٩) .

اللغــة : ﴿سبَّح﴾ التسبيح تمجيد الله وتنزيهه عما لا يليق به من صفات النقص ﴿العزيز﴾ الغالب الذي لا يُغلب ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء في مواضعها ويفعل ما تقتضيه الحكمة ﴿مقتاً﴾ بغضاً قال الزمخشري : المقتُ : أشدُّ البغض وأبلغه وأفحشه[١] ﴿المرصوص﴾ المتماسك المتلاصق بعضه ببعض قال الفراء : رصصتُ البناء إذا لائمتُ بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة[٢] ﴿زاغوا﴾ مالوا عن الهدى والحق ﴿البينات﴾ المعجزات الواضحات .

سَبَبُ النّزول : روي أن المسلمين قالوا : لو علمنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا !! فلما فرض الله الجهاد كرهه بعضهم فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ؟ كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [٣] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿سبَّح للهِ ما في السمواتِ وما في الأرض﴾ أي نزَّه اللهَ وقدَّسه ومجَّده جميعُ ما في السمواتِ والأرض من مَلَك ، وإنسان ، ونبات ، وجماد ﴿وإن من شيءٍ إلا يسبح بحمده ولكنْ لا تفقهون تسبيحهم﴾ قال الإمام الفخر : أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السموات والأرض[٤] ﴿وهو العزيزُ الحكيمُ﴾ أي وهو الغالب في ملكه ، الحكيم في صنعه ، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ﴿يا أيها الذينَ آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لم تقولون بألسنتكم شيئاً ولا تفعلونه ؟ ولأي شيءٍ تقولون نفعل ما لا تفعلونه من الخير والمعروف ؟ وهو استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ قال ابن كثير : هذا إنكارٌ على من يَعِد

(١) تفسير الكشاف ٤/ ٣١٤ . (٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١١ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٥٩ . (٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٠ .

كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي

وعداً ، أو يقول قولاً لا يفي به ، وفي الصحيحين « آية المنافق ثلاثٌ : إذا وعد أخلف ، وإذا حدَّث كذب ، وإذا ائتمن خان »[١] ثم أكَّد الإنكار عليهم بقوله **﴿كبر مقتاً عند اللّهِ﴾** أي عظُم فعلكم هذا بغضاً عند ربكم **﴿أن تقولوا ما لا تفعلون﴾** أي أن تقولوا شيئاً ثم لا تفعلونه ، وأن تَعِدوا بشيء ثم لا تفون به قال ابن عباس : كان ناسٌ من المؤمنين - قبل أن يُفرض الجهاد - يقولون : لوددنا أنَّ اللهَ عز وجلَّ دلنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الايمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره فنزلت الآية[٢] وقيل : هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يأتمر به ، وينهاه عن المنكر ولا ينتهي عنه كقوله تعالى **﴿أتأمرون الناس بالبرِّ وتنسون أنفسكم﴾** ؟ ثم أخبرهم تعالى بفضيلة الجهاد في سبيل الله فقال **﴿إنَّ اللهَ يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾** أي يحب المجاهدين الذين يصفُّون أنفسهم عند القتال صفاً ، ويثبتون في أماكنهم عند لقاء العدو **﴿كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ﴾** أي كأنهم في تراصِّهم وثبوتهم في المعركة ، بناءٌ قد رُصَّ بعضه ببعض ، وأُلصق وأُحكم حتى صار شيئاً واحداً قال القرطبي : ومعنى الآية أنه تعالى يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء ، وهذا تعليمٌ من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم[٣] . . ولما ذكر تعالى أمر الجهاد ، بيَّن أنَّ موسى وعيسى أمرا بالتوحيد ، وجاهدا في سبيل الله وأوذيا بسبب ذلك فقال **﴿وإذْ قال موسى لقومهِ يا قوم لم تؤذونني﴾** ؟ أي واذكر يا محمد لقومك قصة عبده وكليمه « موسى بن عمران » حين قال لقومه بني إسرائيل : لمَ تفعلون ما يؤذيني[٢] ؟ **﴿وقد تعلمون أني رسولُ اللهِ إليكم﴾** أي والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً - بما شاهدتموه من المعجزات الباهرة - أني رسولُ اللهِ إليكم ، وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ؟ وفي هذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ فيما أصابه من كفار مكة **﴿فلما زاغوا أزاغَ اللهُ قلوبهم﴾** أي فلما مالوا عن الحقِّ ، أمال الله قلوبهم عن الهدى **﴿واللهُ لا يهدي القوم الفاسقين﴾** أي واللهُ لا يوفق للخير والهدى من كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله قال الرازي : وفي هذا تنبيهٌ على عظم إيذاء الرسل ، حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى[٤] . . ثم ذكر تعالى قصة عيسى عليه السلام فقال **﴿وإذ قالَ عيسى ابن مريمَ يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾** أي واذكر يا محمد لقومك هذه القصة

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٩١ . (٢) المختصر ٣/ ٤٩٢ . وهذا القول هو اختيار الطبري .
(٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٢ . (٤) قال القرطبي : وإذايتُه عليه السلام حين رموه بالأدرة - وهو انتفاخ الخصية - ومن الأذى أنهم دسُّوا امرأةً تدّعي عليه الفجور ، ومن الأذى قولهم ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾وقولهم ﴿ إذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ . (٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٣ .

رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾

أيضاً حين قال عيسى لبني إسرائيل إني رسول اللهِ أرسلت إليكم بالوصف المذكور في التوراة قال **القرطبي** : ولم يقل « يا قوم » كما قال موسى ، لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه[1] فإنه لم يكن له فيهم أب **﴿مصدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة﴾** أي حال كوني مصدِّقاً ومعترفاً بأحكام التوراة ، وكُتب الله وأنبيائه جميعاً ، ولم آتكم بشيء يخالف التوراة حتى تنفروا عني **﴿ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُه أحمد﴾** أي وجئت لأبشركم ببعثة رسولٍ يأتي بعدي يسمى « أحمد » **قال الألوسي** : وهذا الاسم الكريم علمٌ لنبينا محمدﷺ كما قال حسان :

صلَّى الإلهُ ومن يحفُّ بعرشه والطَّيبون على المبارك « أحمد »[2]

وفي الحديث (لي خمسة أسماءٍ : أنا محمدٌ ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناسُ على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا العاقب)[3] ومعنى العاقب الذي لا نبيَّ بعده ، وروي أن الصحابة قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك ! فقال : دعوةُ أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج مِنها نورٌ أضاءت له قصور الشام[4] **﴿فلما جاءهم بالبينات﴾** أي فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الواضحات ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، ونحو ذلك من المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة[5] **﴿قالوا هذا سحرٌ مبين﴾** أي قالوا عن عيسى : هذا ساحرٌ جاءنا بهذا السحر الواضح ، والإشارة بقولهم « سحر » إلى المعجزات التي ظهرت على يديه عليه السلام ، **قال المفسرون** : بشَّر كلُّ نبي قومه بنبيِّنا محمد ﷺ ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبشارة في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبيناﷺ ، فبيَّن تعالى أن البشارة به عمَّت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل **﴿ومن أظلمُ ممَّن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام﴾** استفهامٌ بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن يدعوه ربه إلى الإسلام على لسان نبيه ، فيجعل مكان إجابته إفتراء الكذب على الله بتسمية نبيه ساحراً ، وتسمية آياتِ الله المنزلة سحراً **﴿واللهُ لا يهدي القوم الظالمين﴾** أي لا يوفق ولا يرشد إلى الفلاح والهدى من كان فاجراً ظالماً **﴿يريدون ليطفئوا نورَ اللهِ بأفواههم﴾** أي يريد المشركون بأن يطفئوا دين الله وشرعه المنير بأفواههم **قال الفخر الرازي** : وإطفاء نور الله تعالى تهكمٌ بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن إنه سحر ، شُبهت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه[6] ، وفيه تهكم وسخريةٌ بهم **﴿واللهُ متمُّ نوره﴾** أي واللهُ مظهرٌ لدينه ،

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٣ . (٢) تفسير الألوسي ٢٨/ ٨٦ . (٣) أخرجه البخاري ومسلم . (٤) سيرة ابن اسحق قال ابن كثير : إسناده جيد . (٥) هذا هو الظاهر أنَّ الضمير يعود على « عيسى » لأنه المحدَّث عنه ، وقيل : يعود على « أحمد » الذي بشروا به ، والأول اختيار البيضاوي والألوسي وصاحب البحر المحيط ، وهو الأظهر . (٦) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٤

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾

بنشره في الآفاق ، وإعلائه على الأديان ، كما جاء في الحديث (إنَّ الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها . .) الحديث[١] والمراد أنَّ هذا الدين سينتشر في مشارق الدنيا ومغاربها ﴿ولو كره الكافرون﴾ أي ولو كره ذلك الكافرون المجرمون ، فإنَّ الله سيعز شأن هذا الدين رغم أنف الكافرين قال في حاشية البيضاوي : كان كفار مكة يكرهون هذا الدين الحق ، من أجل توغلهم في الشرك والضلال ، فكان المناسب إذلالهم وإرغامهم بإظهار ما يكرهونه من الحق ، وليس المراد من إظهاره ألا يبقى في العالم من يكفر بهذا الدين ، بل المرادُ أن يكون أهلهُ عالين غالبين على سائر أهل الأديان بالحجة والبرهان ، والسيف واللسان ، إلى آخر الزمان[٢] ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقِّ﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته وحكمته بعث رسوله محمداً ﷺ بالقرآن الواضح ، والدين الساطع ﴿ليظهره على الدين كلِّه﴾ أي ليعليه على سائر الأديان المخالفة له ، من يهودية ونصرانية وغيرهما ﴿ولو كره المشركون﴾ أي ولو كره ذلك أعداءُ الله ، المشركون بالله غيره قال أبو السعود : ولقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام ، حيث جعله بحيث لم يبق دينٌ من الأديان ، إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام[٣] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة . . إلى . . فأصبحوا ظاهرين﴾ من آية (١٠) إلى آية (١٤) نهاية السورة .

المناسَبَة : لما بيَّن تعالى أن المشركين يريدون إطفاء نور الله ، أمر المؤمنين بمجاهدة أعداء الدين ، ودعاهم إلى التضحية بالمال والنفس والجهاد في سبيل الله ، وبيَّن لهم أنها التجارة الرابحة لمن أراد سعادة الدارين .

اللغَة : ﴿تنجيكم﴾ تخلِّصكم وتنقذكم ﴿الحواريون﴾ الأصفياء والخواص من أتباع عيسى ، وهم الذين ناصروا المسيح عليه السلام ﴿أيَّدنا﴾ قوَّينا وساندنا ﴿ظاهرين﴾ غالبين بالحجة والبرهان .

سَبَبُ النّزول : روي أن بعض الصحابة قالوا يا نبيَّ الله : لوددنا أن نعلم أيَّ التجارات أحبُّ إلى الله فنتجر فيها ! ! فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم﴾[٤] ؟ الآيات .

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم ، ومعنى « زوى الأرض » أي جمعها حتى رآها صلوات الله عليه . (٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٠ . (٣) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦١ . (٤) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٧ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾

التفسير : ﴿**يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ**﴾ أي يا من صدقتم الله ورسوله وآمنتم بربكم حقَّ الإِيمان ، هل أدلكم على تجارة رابحة جليلة الشأن ؟ والاستفهام للتشويق ﴿**تنجيكم من عذابٍ أليم**﴾ أي تخلِّصكم وتنقذكم من عذاب شديد مؤلم . . ثم بيَّن تلك التجارة ووضحها فقال ﴿**تؤمنون باللهِ ورسوله**﴾ إيماناً صادقاً ، لا يشوبه شكٌ ولا نفاق ﴿**وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفُسكم**﴾ أي وتجاهدون أعداء الدين بالمال والنفس ، لإِعلاء كلمة الله قال المفسرون : جعل الإِيمان والجهاد في سبيله « تجارة » تشبيهاً لهما بالتجارة ، فإنها عبارة عن مبادلة شيء بشيء ، طمعاً في الربح ، ومن آمن وجاهد بماله ونفسه فقد بذل ما عنده وما في وسعه ، لنيل ما عند ربه من جزيل ثوابه ، والنجاة من أليم عقابه ، فشبَّه هذا الثواب والنجاة من العذاب بالتجارة لقوله تعالى ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة﴾ قال الإِمام الفخر : والجهاد ثلاثةُ أنواع : ١ ـ جهادٌ فيما بينه وبين نفسه ، وهو قهرُ النفس ومنعُها عن اللذات والشهوات . ٢ ـ وجهادٌ فيما بينه وبين الخلق ، وهو أن يدع الطمع منهم ويشفق عليهم ويرحمهم ٣ ـ وجهادُ أعداء الله بالنفس والمال نصرةً لدين الله[1] ﴿**ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون**﴾ أي ما أمرتكم به من الإِيمان والجهاد في سبيل الله ، خيرٌ لكم من كل شيء في هذه الحياة ، إن كان عندكم فهمٌ وعلم ﴿**يغفر لكم ذنوبكم**﴾ هذا جواب الجملة الخبرية ﴿**تؤمنون باللهِ ورسوله**﴾ لأن معناها معنى الأمر أي آمنوا بالله وجاهدوا في سبيله فإذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم أي يسترها عليكم ، ويمحها بفضله عنكم ﴿**ويدخلكُم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ**﴾ أي ويدخلكم حدائق وبساتين ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿**ومساكن طيبةً في جنات عدنٍ**﴾ أي ويسكنكم في قصور رفيعة في جنات الإِقامة ﴿**ذلك الفوز العظيم**﴾ أي ذلك الجزاء المذكور هو الفوز العظيم الذي لا فوز وراءه ، والسعادة الدائمة الكبيرة التي لا سعادة بعدها ﴿**وأُخرى تحبونها**﴾ أي ويمنُّ عليكم بخصلةٍ أُخرى تحبونها وهي ﴿**نصرٌ من الله وفتحٌ قريب**﴾ أي أن ينصركم على أعدائكم ، ويفتح لكم مكة وقال ابن عباس : يريد فتح فارس والروم ﴿**وبشِّر المؤمنين**﴾ أي وبشِّر يا محمد المؤمنين ، بهذا الفضل المبين قال في البحر : لما ذكر تعالى ما يمنحهم من الثواب في الآخرة ، ذكر لهم ما يسرُّهم في العاجلة ، وهي ما يفتح الله عليهم من البلاد[2] ، فهذه هي خير الدنيا موصولٌ بنعيم الآخرة ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار اللّه**﴾ أي انصروا دين الله وأعلوا مناره ﴿**كما قال عيسى ابن**

(١) التفسير الكبير ٢٩/٣١٦ . (٢) تفسير البحر المحيط ٨/٢٦٣ .

﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

مريـم للحوارييـن﴾ أي كما نصر الحواريون دين الله حين قال لهم عيسى بن مريم ﴿مـن أنصاري إلـى اللـه﴾ أي من ينصرني ويكون عوني لتبليغ دعوة الله ، ونصرة دينه ؟ ﴿قـال الحواريـو ن نحـنُ أنصارُ اللّـه﴾ أي قال أتباع عيسى ـ وهم المؤ منون الخُلَّص من خاصته المستجيبون لدعوته ـ نحن أنصار دين الله قال البيضاوي : والحواريون أصفياؤه وهم أول من آمن به ، مشتقٌ من الحور وهو البياض ، وكانوا اثني عشر رجلاً[١] وقال الرازي : والتشبيه في الآية محمول على المعنى أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله[٢] ﴿فآمنـت طائفـة مـن بنـي إسرائيل وكفـرت طائفـةٌ﴾ أي فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين : جماعةٌ آمنت به وصدَّقته ، وجماعةٌ كفرت وكذبت برسالة عيسى ﴿فأيدنـا الذيـن آمنـوا علـى عدوهـم﴾ أي فقوينا المؤ منين على أعدائهم الكافرين ﴿فأصبحـوا ظاهريـن﴾ أي حتى صاروا غالبين عليهم بالحجة والبرهان قال ابن كثير : لما بلَّغ عيسى بن مريم رسالة ربه ، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به ، وضلَّت طائفة فجحدوا نبوته ، ورموه وأُمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعنة الله ، وغلت فيه طائفةٌ من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فيه فرقاً وشيعاً ، فمنهم من زعم أنه ابنُ الله ، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة « الأب والابن وروح القدس » ومنهم من قال : إنه اللهُ ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ فنصر الله المؤ منين على من عاداهم من فرق النصارى[٣] .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يأتي :

١ ـ أسلوب التوبيخ ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ ؟ وهي « ما » الاستفهامية حذفت ألفها تخفيفاً ، والغرض من الاستفهام التوبيخ .

٢ ـ الإطناب بتكرار ذكر اللفظ لبيان غاية قبح ما فعلوه ﴿كبـر مقتـاً عنـد اللـه أن تقولـوا ما لا تفعلون﴾ وبين ﴿تقولوا . . وتفعلوا﴾ طباقٌ .

٣ ـ التشبيه المرسل المفصَّل ﴿كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ﴾ أي في المتانة والتراص .

٤ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿يريدون ليطفئوا نور الله﴾ استعار نور الله لدينه وشرعه المنير ، وشبَّه من أراد إبطال الدين بمن أراد إطفاء الشمس بفمه الحقير ، على طريق الاستعارة التمثيلية ، وهذا من لطيف الاستعارات .

---

(١) حاشية البيضاوي ٣/ ٤٩٢ . (٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٩ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٩٥ .

٥ ـ الاستفهام للترغيب والتشويق ﴿هل أدلكم على تجارة﴾ ؟ .

٦ ـ الطباق ﴿فآمنت طائفة . . وكفرت طائفة﴾ .

٧ ـ السجع المرصَّع كأنه حبات در منظومة في سلك واحد مثل ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ ﴿وبشر المؤمنين﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تنبيه : إنما قرنت قصة موسى وعيسى في هذه السورة لأنهما من أنبياء بني إسرائيل ، وهما من أعظم أنبيائهم ومن أولي العزم الذين ذكرهم الله في كتابه العزيز بالثناء والتبجيل .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الصف »

* * *



بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة مدنية وهي تتناول جانب التشريع ، والمحور الذي تدور عليه السورة بيانُ أحكام « صلاة الجمعة » التي فرضها الله على المؤمنين .

* تناولت السورة الكريمة بعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ وبيَّنت أنه الرحمة المهداة ، أنقذ الله به العرب من ظلام الشرك والضلال ، وأكرم به الإنسانية ، فكانت رسالته بلسماً لأمراض المجتمع البشري ، بعد أن كان يتخبط في الظلام .

* ثم تحدثت السورة عن اليهود ، وانحرافهم عن شريعة الله ، حيث كُلِّفوا بالعمل بأحكام التوراة ، ولكنهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم ، وضربت مثلاً لهم بالحمار ، الذي يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة ، ولكنه لا يناله منها إلا العناء والتعب ، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة .

* ثم تناولت أحكام « صلاة الجمعة » فدعت المؤمنين إلى المسارعة لأداء الصلاة ، وحرمت عليهم البيع وقت الأذان ووقت النداء لها ، وختمت بالتحذير من الإنشغال عن الصلاة بالتجارة واللهوكحال المنافقين ، الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى متثاقلين .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض . . إلى . . واللهُ خير الرازقين﴾ من آية (١) إلى آية (١١) نهاية السورة .

اللغة : ﴿الأميين﴾ العرب المعاصرين للنبي ﷺ سُمُّوا بذلك لاشتهارهم بالأمية وهي عدم القراءة والكتابة ﴿يزكيهم﴾ من التزكية وهي التطهير من دنس الشرك والمعاصي ﴿أسفاراً﴾ جمع سفر وهو الكتاب الكبير قال الشاعر :

زوامل للأسفار لا علم عندهم . بجيِّدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعيرُ إذا غدا بأوساقه أو راحَ ما في الغرائر[1]

﴿هادوا﴾ تدينوا باليهودية ﴿انفضُّوا﴾ تفرقوا وانصرفوا .

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٦٦ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾

سَبَبُ النّزول : عن جابر رضي الله عنه قال « بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً ، إذْ قدمت عيرٌ من المدينة ، فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر ، فأنزل الله تعالى ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها وتركوك قائماً . .﴾»[1] الآية .

التفسير : ﴿يُسبِّح للّه ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ينزِّه الله ويمجده ويقدِّسه كلُّ شيء في الكون من إنسانٍ ، وحيوان ، ونبات ، وجماد ، وصيغةُ المضارع ﴿يُسبحُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار ، فهو تسبيحٌ دائم على الدوام ﴿الملِك﴾ أي هو الإِله المالك لكل شيء ، المتصرف في خلقه بالإِيجاد والإِعدام ﴿القُدوس﴾ أي المقدَّس والمنزَّه عن النقائص ، المتصف بصفات الكمال ﴿العزيز الحكيم﴾ أي العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿هو الذي بعثَ في الأُميِّين رسولاً منهم﴾ أي هو جل وعلا برحمته وحكمته الذي بعث في العرب رسولاً من جملتهم ، أمياً مثلهم لا يقرأ ولا يكتب قال المفسرون : سُمي العرب أميّين لأنهم لا يقرأون ولا يكتبون ، فقد اشتهرت فيهم الأمية كما قال عليه الصلاة والسلام (نحن أمةٌ أمية ، لا نكتب ولا نحسب)[2] الحديث والحكمةُ في اقتصاره على ذكر الأميين ، مع أنه رسولٌ إلى كافة الخلق ، تشريفُ العرب حيث أُضيف صلوات الله عليه إليهم ، وكفى بذلك شرفاً للعرب ﴿يتلوا عليهم آياته﴾ أي يقرأ عليهم آيات القرآن ﴿ويزكّيهم﴾ أي ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب قال ابن عباس : أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإِيمان[3] ﴿ويعلّمهم الكتابَ والحكمة﴾ أي ويعلمهم ما يتلى من الآيات والسنة النبوية المطهرة ﴿وإنْ كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنهم كانوا من قبل إرسال محمد ﷺ إليهم لفي ضلالٍ واضح ، عن النهج القويم ، والصراط المستقيم قال ابن كثير : بعث الله محمداً ﷺ على حين فترةٍ من الرسل ، وطموسٍ من السُّبُل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، فقد كان العرب متمسكين بدين إبراهيم الخليل فبدلوه وغيَّروه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها اللهُ ، وكذلك كان أهل الكتاب قد بدَّلوا كتبهم وحرفوها ، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم ، شامل كامل ، فيه الهداية والبيان لكل ما يحتاج الناس إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، وجمع له تعالى جميع المحاسن ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من

(١) أخرجه البخاري ومسلم وانظر تفسير « روح المعاني » للألوسي ٢٨/ ١٠٤ .
(٢) أخرجه البخاري ومسلم . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٩٢ .

وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾

الأولين والآخرين[(1)] ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾ أي وبعث الرسول إلى قومٍ آخرين ، لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم ، وهم جميع من أسلم إلى يوم القيامة قال الصاوي : والمعنى أنه بعث إلى المؤمنين الموجودين في زمانه ، وإلى الآتين منهم بعدهم ، فليست رسالته خاصة بمن كان موجوداً في زمانه ، بل هي عامة لهم ولغيرهم إلى يوم القيامة[(2)] ، وفي الحديث عن أبي هريرة قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : وفينا سلمان الفارسي ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجالٌ من هؤلاء »[(3)] قال مجاهد : في تفسير الآية : هم الأعاجم وكلُّ من صدَّق النبي ﷺ من غير العرب[(4)] ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي القويُّ الغالب في ملكه ،الحكيم ،في صنعه ﴿ذلك فضلُ اللَّهِ يؤتيه من يشاء﴾ أي ذلك الشرف الذي امتاز به سيد البشر ، وهو كونه مبعوثاً إلى كافة الناس ، وما شرَّف الله به العرب من نزول القرآن بلغتهم ، وإرسال خاتم الرسل إليهم ، هو فضلُ اللهِ يعطيه لمن يشاء من خلقه ﴿واللهُ ذو الفضل العظيم﴾ أي هو جل وعلا ذو الفضل الواسع على جميع خلقه في الدنيا والآخرة . . ثم شرع تعالى في ذم اليهود الذين أكرمهم الله بالتوراة ، فلم ينتفعوا بها ولم يطبقوها ، وشبَّههم بالحمار الذي يحمل الأسفار فقال ﴿مثلُ الذين حُمِّلوا التوراة﴾ أي مثل اليهود الذين أعطوا التوراة ، وكُلِّفوا العمل بما فيها ﴿ثم لم يحملوها﴾ أي ثم لم يعملوا بها ، ولم ينتفعوا بهديها ونورها ﴿كمثل الحمار يحملُ أسفاراً﴾ أي مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل الكتب النافعة الضخمة ، ولا يناله منها إلا التعب والعناء قال القرطبي : شبههم تعالى ـ والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها ـ بالحمار يحمل كتباً ، وليس له إلاّ ثقل الحمل من غير فائدة ، فهو يتعب في حملها ولا ينتفع بما فيها[(5)] وقال في حاشية البيضاوي : ذمَّ تعالى اليهود بأنهم قراءُ التوراة ، عالمون بما فيها ، وفيها آياتٌ دالة على صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب الإيمان به ، ولكنهم لم ينتفعوا بها مما ينجيهم من شقاوة الدارين ، وشبههم بالحمار الذي يحمل أسفار العلم والحكمة ولا ينتفع بها ، ووجه التشبيه حرمان الانتفاع بما هو أبلغ شيء في الانتفاع ، مع الكدِّ والتعب[(6)] ﴿بئس مثلُ القومِ الَّذين كذَّبوا بآيات اللَّه﴾ أي بئس هذا المثل الذي ضربناه لليهود ، مثلاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام[(7)] ﴿واللهُ لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفق للخير ، ولا يرشد للإيمان من كان ظالماً فاسقاً قال عطاء : هم الذين

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٩٧ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٠٤ . (٣) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .
(٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٤٩٨ . (٥) تفسير القرطبي ١٨/ ٩٥ . (٦) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٤ . (٧) أقول : هذه الآية الكريمة فيها تعريضٌ بنا معشر المسلمين إن لم نطبق أحكام القرآن ونعمل بمقتضاه وهو على حد قولهم : إياك أعني واسمعي يا جارة .

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

ظلموا أنفسهم بتكذيبهم للأنبياء[١] ، ثم كذَّب تعالى اليهود في دعوى أنهم أحبابُ الله فقال ﴿**قل يا أيها الذين هادوا**﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تهودوا وتمسكوا بملة اليهودية ﴿**إن زعمتم أنكم أولياءُ لله من دون الناس**﴾ أي إن كنتم أولياء الله وأحباءه حقاً كما تدَّعون ﴿**فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين**﴾ أي فتمنوا من الله أن يميتكم ، لتنتقلوا سريعاً إلى دار كرامته المعدَّة لأوليائه ، إن كنتم صادقين في هذه الدعوى قال أبو السعود : كان اليهود يقولون : ﴿ نحن أبناءُ الله وأحباؤُه ﴾ ويدَّعون أن الدار الآخرة لهم عند الله خالصة ، ويقولون ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً﴾ فأمر الله رسوله أن يقول لهم إظهاراً لكذبهم : إن زعمتم ذلك فتمنوا الموت ، لتنتقلوا من داء البلاء إلى دار الكرامة ، فإنَّ من أيقن بأنه من أهل الجنة ، أحبَّ أن يتخلص إليها من هذه الدار التي هي مقرُّ الأكدار[٢] ، قال تعالى فاضحاً لهم ، ومبيناً كذبهم ﴿**ولا يتمنونه أبداً بما قدَّمت أيديهم**﴾ أي ولا يتمنون الموت بحالٍ من الأحوال ، بسبب ما أسلفوه من الكفر والمعاصي وتكذيب محمد عليه السلام وفي الحديث « والذي نفسي بيده ، لو تمنوا الموتَ ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات »[٣] قال **الألوسي** : لم يتمنَّ أحدٌ الموت منهم ، لأنهم كانوا موقنين بصدقه عليه السلام ، فعلموا أنهم لو تمنوه لماتوا من ساعتهم ، وهذه إحدى المعجزات ، وجاء في سورة البقرة نفيُ هذا التمني بلفظ ﴿ولن﴾ وهو من باب التفنن على القول المشهور[٤] ﴿**واللهُ عليمٌ بالظالمين**﴾ أي عالمٌ بهم وما صدر عنهم من فنون الظلم والمعاصي ، وإنما وضع الظاهر موضع الضمير « عليمٌ بهم » ذماً لهم ، وتسجيلاً عليهم بأنهم ظالمون[٥] ﴿**قل إن الموت الذي تفرون منه**﴾ أي قل لهم يا محمد : إن هذا الموت الذي تهربون منه ، وتخافون أن تتمنوه حتى بلسانكم ﴿**فإنه ملاقيكم**﴾ أي فإنه آتيكم لا محالة ، لا ينفعكم الفرار منه كقوله تعالى ﴿أينما تكونوا يدرككم الموتُ ولو كنتم في بروجٍ مشيَّدة﴾ لأنه قدرٌ محتوم ، ولا يغني حذرٌ عن قدر ﴿**ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة**﴾ أي ثم ترجعون إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿**فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ أي فيجازيكم على أعمالكم ، وفيه وعيدٌ وتهديد . . ثم شرع تعالى في بيان أحكام الجمعة فقال ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة**﴾ أي يا معشر المؤمنين المصدِّقين بالله ورسوله ، إذا سمعتم المؤذن ينادي لصلاة الجمعة ويؤذن لها ﴿**فاسْعوا إلى ذكر الله وذروا البيع**﴾ أي فامضوا إلى سماع خطبة الجمعة وأداء الصلاة ،

(١) التفسير الكبير للرازي ٢٩/ ٥ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٣ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٩٦ .
(٤) روح المعاني ٢٨/ ٩٦ . (٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٣ .

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾

واتركوا البيع والشراء ، اتركوا التجارة الخاسرة واسعوا إلى التجارة الرابحة قال في التسهيل : والسعيُ في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري[١] لحديث « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة »[٢] . . وقال الحسن : واللهِ ما هو بالسعي على الأقدام ، ولقد نهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكنه سعيٌ بالقلوب ، والنية ، والخشوع[٣] ﴿ذلكم خيرٌ لكم﴾ أي ذلك السعي إلى مرضاة الله ، وتركُ البيع والشراء ، خيرٌ لكم وأنفع من تجارة الدنيا ، فإن نفع الآخرة أجلُّ وأبقى ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كنتم من أهل العلم القويم ، والفهم السليم ﴿فإذا قُضيت الصلاةُ﴾ أي فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها ﴿فانتشروا في الأرض﴾ أي فتفرقوا في الأرض وانبثوا فيها للتجارة وقضاء مصالحكم ﴿وابتغوا من فضلِ اللّه﴾ أي واطلبوا من فضل الله وإنعامه ، فإن الرزق بيده جلَّ وعلا وهو المنعم المتفضل ، الذي لا يُضيع عمل العامل ، ولا يخيِّب أمل السائل ﴿واذكروا اللهَ كثيراً﴾ أي واذكروا ربكم ذكراً كثيراً ، باللسان والجنان ، لا وقت الصلاة فحسب ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي كي تفوزوا بخير الدارين قال سعيد بن جبير : ذكرُ الله طاعته ، فمن أطاع اللهَ فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكرٍ ولو كان كثير التسبيح[٤] . . ثم أخبر تعالى أنَّ فريقاً من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، ويفضلون العاجل على الآجل فقال ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها﴾ هذا عتابٌ لبعض الصحابة الذين انصرفوا عن رسول الله ﷺ وتركوه قائماً يخطب يوم الجمعة ، والمعنى : إذا سمعوا بتجارة رابحة ، أو صفقةٍ قادمة ، أو شيء من لهو الدنيا وزينتها ، تفرقوا عنك يا محمد وانصرفوا إليها ، وأعاد الضمير إلى التجارة دون اللهو ﴿انفضُّوا إليها﴾ لأنها الأهم المقصود ﴿وتركوك قائماً﴾ أي وتركوا الرسول قائماً على المنبر يخطب قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة ، فأقبلت عيرٌ من الشام بطعام قدم بها « دحية الكلبي » ـ وكان أصاب أهل المدينة جوعٌ وغلاء سعر ـ وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سروراً بها ، فلما دخلت العير كذلك انفضَّ أهل المسجد إليها ، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر ، ولم يبق معه إلا اثني عشر رجلاً قال جابر بن عبد الله : أنا أحدهم فنزلت الآية[٥] قال ابن كثير : وينبغي أن يعلم أن هذه القصة كانت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة كما هو الحال في العيدين ، كما روى ذلك أبو داود[٦] ﴿قل ما عند اللّه خيرٌ من اللهو ومن التجارة﴾ أي قل لهم يا محمد : إنَّ ما عند الله من الثواب والنعيم ، خير مما أصبتموه من اللهو والتجارة ﴿والله خير الرازقين﴾ أي خير من رزق

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١١٩ . (٢) أخرجه الستة . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ١٠٣ .
(٤) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٤٩٦ . (٥) انظر سبب النزول المتقدم . (٦) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٢ .

وأعطى ، فاطلبوا منه الرزق ، وبه استعينوا لنيل فضله وإنعامه .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التشبيه التمثيلي ﴿مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد أي مثلهم في عدم الانتفاع بالتوراة ، كمثل الحمار الذي يحمل على ظهره الكتب العظيمة ولا يكون له منها إلا التعب والعناء .

٢ ـ طباق السلب ﴿فتمنوا الموت . . ولا يتمنونه أبداً﴾ .

٣ ـ الطباق بين ﴿الغيب والشهادة﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٤ ـ التفنن بتقديم الأهم في الذكر ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهواً﴾ لأن المقصود الأساسي هو التجارة فقدمها ثم قال ﴿قل ما عند الله خيرٌ من اللهو ومن التجارة﴾ فقدَّم اللهو على التجارة لأن الخسارة بما لا نفع فيه أعظم ، فقدَّم ما هو أهم في الموضعين .

٥ ـ المجاز المرسل ﴿وذروا البيع﴾ أطلق البيع وقصد جميع أنواع المعاملة من بيع وشراء وإجارة وغيرها .

تَـنْبِيـه : يوم الجمعة سمي بذلك لاجتماع المسلمين فيه للصلاة ، وقد كان يسمى في الجاهلية « يوم العروبة » ومعناه الرحمة كما قال السهيلي ، وأول من سمَّاه جمعة « كعب بن لؤي » وأول من صلى بالمسلمين الجمعة « أسعد بن زرارة » صلى بهم ركعتين وذكَّرهم ، فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه ، فهي أول جمعة في الإسلام[1] .

فَـائِـدَة : كان « عراك بن مالك » إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إني أجبتُ دعوتك ، وصليتُ فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين »[2] .

لَطِيفَـة : التعبير بقوله تعالى ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ فيه لطيفة ، وهي أنه ينبغي للمسلم أن يقوم إلى صلاة الجمعة بعزيمة وهمة ، وجد ونشاط ، لأن لفظ السعي يفيد الجد والعزم ، ولهذا قال الحسن البصري : والله ما هو سعيٌ على الأقدام ، ولكنه سعيٌ بالنية والقلوب .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الجمعة »

* * *

(١) روح المعاني ٢٨/ ١٠٠ . (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٠٣ .



(٦٣) سورة المنافقون مدنية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة « المنافقون » مدنية ، شأنها شأن سائر السور المدنية ، التي تعالج « التشريعات والأحكام » وتتحدث عن الإسلام من زاويته العملية وهي القضايا التشريعية .

* والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين ، حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح ، الكاشف لأستار النفاق « سورة المنافقون » .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين ، وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب ، ومخالفة الظاهر للباطن ، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم ، ثم تآمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم ، فهم بتظاهرهم بالإسلام يصدُّون الناس عن دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله الكافر المعلن لكفره ، ولذلك كان خطرهم أعظم ، وضررهم أكبر وأجسم ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ .

* كما تحدثت السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ ، واعتقادهم بأنَّ دعوته ستضمحل وتتلاشى ، وأنهم بعد عودتهم من « غزوة بني المصطلق » سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة المنورة ، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة .

* وختمت السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن ينشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين ، وبيّنت أن ذلك طريق الخسران ، وأمرت بالإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل ،فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم .

اللغة : ﴿جُنَّة﴾ وقاية وسُترة يحفظون بها أنفسهم وأموالهم وفي الحديث (الصوم جُنَّة) أي وقاية من عذاب الله ﴿طبع﴾ ختم عليها بالكفر ، والطبعُ : الختم ﴿يُؤفكون﴾ يصرفون عن الحق إلى الضلال ، من الإفك وهو الصَّرف ﴿لوَّوا﴾ عطفوا وحركوا يقال : لوَّى رأسه إذا حركه وأداره ﴿ينفضُّوا﴾ يتفرقوا ﴿تلهكم﴾ تشغلكم ، واللهو : ما لا خير فيه ولا فائدة من القول أو العمل .

سَبَبُ النّزول : روي أن النبي ﷺ غزا « بني المُصطلق » فازدحم الناسُ على ماءٍ فيه ، فكان ممن ازدحم عليه « جهجاه بن سعيد » أجير لعمر بن الخطاب ، و « سنان الجُهني » حليفٌ لعبد الله بن سلول ـ رأس المنافقين ـ فلطم الجهجاهُ سناناً ، فغضب سنان وصرخ ياللأنصار، وصرخ جهجاه يا للمهاجرين ، فقال « عبد الله بن سلول » أوقد فعلوها ! ! والله ما مثلنا ومثل هؤلاء ـ يعني المهاجرين ـ إلا كما قال الأول « سمِّنْ كلبك يأكلك » ، أما واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل ـ يعني بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله ﷺ وصحبه ـ ثم قال لقومه : إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم ، ولو قطعتم ذلك عنهم لفروا عن بلدكم ، فسمعه « زيد بن أرقم » فأخبر بذلك رسول الله ﷺ ، وبلغ ذلك ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئاً وكذَّب زيداً ، فنزلت السورة إلى قوله تعالى ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل . .﴾[١] الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ أي إذا أتاك يا محمد المنافقون وحضروا مجلسك كعبد الله بن سلول وأصحابه ﴿قالوا نشهد إنك لرسولُ الله﴾ أي قالوا بألسنتهم نفاقاً ورياءً : نشهد بأنك يا محمد رسولُ الله ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قال أبو السعود : أكَّدوا كلامهم بإنَّ واللام ﴿إنك لرسولُ الله﴾ للإيذان بأنَّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم ، وخلوص اعتقادهم ، ووفور رغبتهم ونشاطهم[٢] ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ أي واللهُ جل وعلا يعلم أنك يا محمد رسولُه حقاً ، لأنه هو الذي أرسلك ، والجملةُ اعتراضية جيء بها لدفع توهم تكذيبهم في دعوى رسالته ﷺ لئلا يتوهم السامع أن قولهم ﴿إنك لرسولُ الله﴾ كذبٌ في حدِّ ذاته قال في التسهيل : وقوله ﴿واللهُ يعلم إنك لرسوله﴾ ليس من كلام المنافقين ، وإنما هو من كلام الله تعالى ، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله ﴿واللهُ يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ إبطالٌ للرسالة ، فوسَّطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة[٣] ثم قال تعالى ﴿واللهُ يشهدُ إن المنافقين لكاذبون﴾ أي يشهد بكذب المنافقين فيما أظهروه من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم ، لأنَّ من قال بلسانه شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب ، والإظهار في موضع الإضمار ﴿إن المنافقين﴾ لذمهم وتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم ، كما جاءت الصيغة مؤكدة بإنَّ واللام زيادةً في التقرير والبيان ﴿اتخذوا أيمانهم جُنَّةً﴾ أي اتخذوا أيمانهم الفاجرة وقاية وسُترةً يستترون بها من القتل قال الضحاك : هي حلفهم بالله إنهم مسلمون ﴿فصدُّوا عن سبيل الله﴾ أي

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٢ وانظر البخاري . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٤ . (٣) التسهيل ٤/ ٢١٢ .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾

فمنعوا الناسَ عن الجهادِ ، وعن الايمان بمحمدﷺ قال الطبري : أي أعرضوا عن دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ وشريعته التي شرعها لخلقه[1] وقال ابن كثير : إن المنافقين اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة ، فاغترَّ بهم من لا يعرف جليَّة أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون ، وهم في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً ، فحصل بذلك ضررٌ كبير على كثير من الناس[2] ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ أي قبح عملهم وصنيعهم لأنهم يظهرون بمظهر الايمان ، وهم من أهل النفاق والعصيان ، فبئست أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة قال الصاوي : وساءَ كبئس في إرادة الذم ، وفيها معنى التعجب[3] وتعظيم أمرهم عند السامعين ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا﴾ أي ذلك الحلف الكاذب والصدُّ عن سبيل الله ، بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم قال أبو السعود : أي نطقوا بكلمة الشهادة عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم المجرمين ، وما فيه من الإشارة بالبعيد « ذلك » للإشعار ببعد منزلته في الشر[4] ﴿فطُبع على قلوبهم﴾ أي ختم على قلوبهم فلا يصل إليها هدى ولا نور ﴿فهم لا يفقهون﴾ أي فهم لا يعرفون الخير والايمان ، ولا يفرقون بين الحسن والقبيح ، لختم الله على قلوبهم ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ أي وإذا رأيتَ هؤلاء المنافقين ، أعجبتك هيئاتهم ومناظرهم ، لحسنها ونضارتها وضخامتها ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ أي وإن يتكلموا تُصغ لكلامهم ، لفصاحتهم وذلاقة لسانهم قال ابن عباس : كان ابن سلول ـ رأس المنافقين ـ جسيماً ، فصيحاً ، ذلق اللسان ، فإذا قال سمع النبيﷺ قوله ، وكذلك كان أصحابه إذا حضروا مجلس النبيﷺ يعجب الناس بهياكلهم[5] ﴿كأنَّهم خُشُبٌ مُسنَّدة﴾ أي يشبهون الأخشاب المسنَّدة إلى الحائط ، في كونهم صوراً خالية عن العلم والنظر ، فهم أشباحٌ بلا أرواح ، وأجسام بلا أحلام قال أبو حيان : شُبِّهوا بالخشب لعزوب أفهامهم ، وفراغ قلوبهم من الايمان ، والجملة التشبيهية وصفٌ لهم بالجبن والخور[6] ، ولهذا قال ﴿يحسبون كلَّ صيحةٍ عليهم﴾ أي يظنون ـ لجبنهم وهلعهم ـ كل نداء وكل صوت ، أنهم يرادون بذلك ، فهم دائماً في خوفٍ ووجل من أن يهتك الله أستارهم ، ويكشف أسرارهم قال ابن كثير : كلما وقع أمر أو خوفٌ يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم[7] قال مقاتل : إذا سمعوا نشدان ضالة ، أو صياحاً بأي وجه كان ، طارت عقولهم ، وظنوا ذلك إيقاعاً بهم[8] ﴿هم العدوُّ فاحذرهم﴾ أي هم الأعداء الكاملون في العداوة لك وللمؤمنين وإن أظهروا الإسلام ، فاحذرهم ولا تأمنهم على سرّ ، فإنهم عيونٌ لأعدائك ﴿قاتلهم اللهُ﴾ جملة دعائية أي أخزاهم الله ولعنهم ، وأبعدهم عن رحمته ﴿أنَّى يُؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٦٩ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٣ . (٣) حاشية الصاوي ٤/ ٢٠٨ . (٤) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٥ . (٥) حاشية الصاوي ٤/ ٢٠٨ . (٦) البحر المحيط ٨/ ٢٧٢ . (٧) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٠٤ . (٨) تفسير الألوسي ٢٨/ ١١١ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ

الضلال ؟ وكيف تضل عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين ! ؟ وفيه تعجيب من جهلهم وضلالهم ، وانصرافهم عن الإيمان بعد قيام البرهان ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إنَّ للمنافقين علامات يُعرفون بها : تحيتُهم لعنة ، وطعامهم نُهبة ، وغنيمتُهم غلول ، لا يقربون المساجد إلا هُجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبُراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يُؤْلفون ، خشبٌ بالليل ، صُخبٌ بالنهار)[1] ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسولُ اللّه﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين : هلُمُّوا إلى رسول الله حتى يطلب لكم المغفرة من الله ﴿لوَّوا رءوسهم﴾ أي حركوها وهزوها استهزاءً واستكباراً ﴿ورأيتهم يصدُّون وهم مستكبرون﴾ أي وتراهم يعرضون عمَّا دُعوا إليه ، وهم متكبرون عن استغفار رسول الله ﷺ لهم ، وجيء بصيغة المضارع ليدل على استمرارهم على الإعراض والعناد[2] قال المفسرون : لمَّا نزلت الآيات تفضح المنافقين وتكشف الأستار عنهم ، مشى إليهم أقرباؤهم من المؤمنين ، وقالوا لهم : ويلكم لقد افتضحتم بالنفاق وأهلكتم أنفسكم ، فأتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق واسألوه يستغفر لكم ، فأبوا وحركوا رءوسهم سخريةً واستهزاءً فنزلت الآية ، ثم جاءوا إلى « ابن سلول » وقالوا له : امض إلى رسول الله ﷺ واعترفْ بذنبك يستغفر لك ، فلوَّى رأسه إنكاراً لهذا الرأي ثم قال لهم : لقد أشرتم عليَّ بالإيمان فآمنتُ ، وأشرتم عليَّ بأن أعطي زكاة مالي ففعلتُ ، ولم يبق لكم إلاَّ أن تأمروني بالسجود لمحمد ! ! ثم بيَّن تعالى عدم فائدة الاستغفار لهم ، لأنهم مردوا على النفاق فقال ﴿سواءٌ عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ أي يتساوى الأمر بالنسبة لهم ، فإنه لا ينفع استغفارك لهم شيئاً ، لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله قال الصاوي : والآية للتيئيس من إيمانهم أي إن استغفارك يا محمد وعدمه سواء ، فهم لا يؤمنون لسبق الشقاوة لهم[3] ﴿لن يغفر اللّهُ لهم﴾ أي لن يصفح الله عنهم لرسوخهم في الكفر ، وإصرارهم على العصيان ، ثم علَّله بقوله ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي لا يوفق للإيمان ، من كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الرحمن . . ثم زاد تعالى في بيان قبائحهم وجرائمهم فقال ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسولِ اللهِ حتى ينفضُّوا﴾ أي هم الفجرة الذين قالوا لا تنفقوا على المهاجرين حتى يتفرقوا عن محمد قال في البحر : والإشارة إلى ابن سلول ومن وافقه من قومه ، سفَّه أحلامهم في أنهم ظنوا أن رزق المهاجرين بأيديهم ، وما علموا أن ذلك بيد الله تعالى ، وقولهم ﴿ على من عندَ رسول الله ﴾ هو على سبيل الهزء ، إذ لو كانوا مقرين برسالته ما صدر منهم ما صدر ، والظاهر أنهم لم ينطقوا بنفس ذلك اللفظ ، ولكنه تعالى عبَّر به

(١) أخرجه أحمد كذا في ابن كثير ٣/ ٥٠٤ . (٢) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٧٣ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢٠٩ .

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن﴾

عن رسوله إكراماً له وإجلالاً[1] ﴿ولِلَّهِ خزائنُ السمواتِ والأرض﴾ أي هو تعالى بيده مفاتيح الرزق يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ولا يملك أحدٌ أن يمنع فضل الله عن عباده ﴿ولكنَّ المنافقين لا يفقهون﴾ أي ولكنَّ المنافقين لا يفهمون حكمة الله وتدبيره ، فلذلك يقولون ما يقولون من مقالات الكفر والضلال . . ثم عدَّد تعالى بعض قبائحهم وأقوالهم الشنيعة فقال ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة﴾ أي يقولون لئن رجعنا من هذه الغزوة ـ غزوة بني المصطلق ـ وعدنا إلى بلدنا « المدينة المنورة » ﴿ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾ أي لنخرجنَّ منها محمداً وصحبه ، والقائل هو ابن سلول ، وعنى بالأعز نفسه وأتباعه ، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه[2] قال المفسرون : لما قال ابن سلول ما قال ورجع إلى المدينة ، وقف له ولده « عبد الله » على باب المدينة واستلَّ سيفه ، فجعل الناسُ يمرون به ، فلما جاء أبوه قال له ابنه : وراءك ، والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : إنَّ رسول الله هو الأعزُّ ، وأنا الأذل فقالها ، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : بلغني أنك تريد أن تقتل أبي ، فإن كنت فاعلاً فمرني فأنا أحمل إليك رأسه ! ! فقال له رسول الله ﷺ : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا[3] ﴿ولِلَّهِ العزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾ أي لله جل وعلا القوة والغلبة ولمن أعزه وأيده من رسوله والمؤمنين لا لغيرهم ، والصيغة تفيد الحصر قال القرطبي : توهموا أنَّ العزة بكثرة الأموال والأتباع ، فبيَّن الله أن العزة والمنعة لله ولرسوله وللمؤمنين[4] ﴿ولكنَّ المنافقين لا يعلمون﴾ أي ولكنَّ المنافقين لفرط جهلهم وغرورهم لا يعلمون أن العزة والغلبة لأوليائه دون أعدائه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر اللَّه﴾ لما ذكر قبائح المنافقين ، نهى المؤمنين عن التشبه بهم في الاغترار بالأموال والأولاد والمعنى : لا تشغلكم أيها المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته ، وعن أداء ما افترضه عليكم من الصلاة ، والزكاة ، والحج ، كما شغلت المنافقين قال أبو حيان : أي لا تشغلكم أموالكم بالسعي في نمائها ، والتلذذ بجمعها، ولا أولادكم بسروركم بهم ، وبالنظر في مصالحهم ، عن ذكر الله وهو عام في الصلاة ، والتسبيح ، والتحميد ، وسائر الطاعات[5] ﴿ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ أي ومن تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته ، فأولئك هم الكاملون في الخسران ، حيث آثروا الحقير الفاني على العظيم الباقي ، وفضلوا العاجل على الآجل ﴿وأنفقوا مما رزقناكم﴾ أي وأنفقوا في مرضاة الله ،

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٧٤ . (٢) انظر سبب النزول المتقدم . (٣) يستحسن الرجوع إلى سيرة ابن اسحاق ففيها تفصيل للقصة وتوضيح . (٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٢٩ . (٥) البحر المحيط ٢٧٤٨ .

يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾
وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

من بعض ما أعطيناكم وتفضلنا به عليكم من الأموال ﴿من قبل أن يأتي أحدكُم الموتُ﴾ أي قبل أن يحلَّ الموتُ بالإنسان ، ويصبح في حالة الاحتضار ﴿فيقول ربِّ لولا أخرتني إلى أجلٍ قريب﴾ أي فيقول عند تيقنه الموت : يا ربِّ هلاَّ أمهلتني وأخرت موتي إلى زمنٍ قليل ! ! ﴿فأصَّدق وأكنْ من الصالحين﴾ أي فأتصدق وأحسن عملي ، وأصبح تقياً صالحاً قال ابن كثير : كلُّ مفرطٍ يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات ، ولكن هيهات[1] ﴿ولن يُؤَخر اللهُ نفساً إذا جاء أجلُها﴾ أي ولن يمهل الله أحداً أياً كان إذا انتهى أجله ، ولن يزيد في عمره ، وفيه تحريضٌ على المبادرة بأعمال الطاعات ، حذراً أن يجيء الأجل وقد فرَّط ولم يستعد للقاء ربه ﴿والله خبير بما تعملون﴾ أي مطلع وعالم بأعمالكم من خير أو شر ، ومجازيكم عليها .

البَــلاَغَــة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من الفصاحة والبيان نوجزها فيما يلي :

١ ـ التأكيد بالقسم وإنَّ واللام ﴿واللهُ يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون﴾ زيادة في التقرير والبيان .

٢ ـ الجملة الاعتراضية ﴿واللهُ يعلم إنك لرسوله﴾ جاءت معترضة بين الشرط وجوابه لبيان أنهم ما قالوا ذلك عن اعتقاد ، ولدفع توهم تكذيبهم في دعواهم الشهادة بالرسالة ، والأصلُ ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسولُ الله . . واللهُ يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما .

٣ ـ الاستعارة ﴿اتخذوا أيمانهم جُنَّة﴾ فإن أصل الجُنَّة ما يُستتر به ويُتقى به المحذور كالترس ، ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يظهرون الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم .

٤ ـ الطباق بين ﴿آمنوا ثم كفروا﴾ وبين ﴿الأعزُّ منها الأذل﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٥ ـ التشبيه المرسل المجمل ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خُشُبٌ مسنَّدة﴾ وهو من روائع التشبيه .

٦ ـ طباق السلب ﴿سواءٌ عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم﴾ .

٧ ـ الجملة الدعائية ﴿قاتلهم الله﴾ وهي دعاءٌ عليهم باللعنة والخزي والهلاك .

٨ ـ توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات ، وهو كثير في القرآن يزيد في رونق الكلام .

تَنْبِيه : النفاق لم يكن بمكة وإنما كان بها الكفر ، ولم يظهر النفاق إلا بالمدينة المنورة حين عزَّ

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٦ .

الإسلام وكثر أنصاره ، وقد كان المنافقون يظهرون الإسلام لصون دمائهم وأموالهم كما قال الشاعر :

وما انتسبوا إلى الإسلام إلاّ لصون دمائهم أن لا تُسالا

فائدة : العزةُ غير الكبر ، ولا يحل للمسلم أن يُذلَّ نفسه ، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، والكبر جهل الإنسان بنفسه ، قيل للحسن بن علي رضي الله عنهما : إن الناس يزعمون أن فيك كبراً وتيهاً فقال : ليس بتيه ولكنه عزة المسلم ثم تلا الآية ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ .

لطيفة : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاةٌ فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجلٌ يا ابن عباس : اتق الله فإنما يسأل الرجعة الكفار !! فقال : سأتلو عليكم بذلك قرآناً ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموتُ فيقول ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب . .﴾ الآية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المنافقون »

* * *



بين يدي السورة

* سورة التغابن من السور المدنية التي تعنى بالتشريع ، ولكنَّ جوَّها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

* تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته ، ثم تناولت موضوع الإنسان المعترف بربه ، والإنسان الكافر الجاحد بآلاء الله .

* وضربت الأمثال بالقرون الماضية ، والأمم الخالية ، التي كذبت رسل الله ، وما حلَّ بهم من العذاب والدمار ، نتيجةً لكفرهم وعنادهم وضلالهم .

* وأقسمت السورة على أن البعث حقٌّ لا بدَّ منه ، أقرَّ به المشركون أو أنكروه .

* وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله ، وحذَّرت من الإعراض عن دعوة الله .

* كما حذَّرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد ، فإنهم كثيراً ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة .

* وختمت السورة بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه ، وحذرت من الشح والبخل ، فإن من صفات المؤمن الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وهو شطر الجهاد في سبيل الله .

اللغـــة : ﴿صوَّركم﴾ التصوير : التخطيط والتشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يتميز بها عن غيره ﴿نبأ﴾ النبأ : الخبر الهام ﴿وبال﴾ الوبال : العقوبة والنكال ﴿زعم﴾ ظنَّ ، والزعمُ هو القول بالظن ومنه قولهم « زعموا مطيةُ الكذب » قال شريح : « لكل شيءٍ كنيةٌ ، وكنيةُ الكذب زعموا »[1] ﴿التغابن﴾ الغبنُ ومعناه : النقص يقال : غبنه غبناً إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته ، وسمي يوم القيامة يوم التغابن ، لأنه يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان ، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان .

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ١٣٥ .

سبب النزول : روي أن رجالاً من أهل مكة أسلموا ، وأرادوا أن يهاجروا الى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم ، وقالوا : صبرنا على إسلامكم ولا صبر لنا على فراقكم ! ؟ فأطاعوهم وتركوا الهجرة فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم . .﴾[1] الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

التفسير : ﴿يُسبِّح لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات ، تنزيهاً دائماً مستمراً بدون انقطاع ، وصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ﴿له المُلكُ وله الحمدُ﴾ أي له جل وعلا المُلك التام والتصرف الكامل في خلقه ، وهو المستحق للثناء وحده ، لأن جميع النعم منه سبحانه وتعالى ، وقدَّم الجار والمجرور فيهما لإفادة حصر الملك والحمد فيه سبحانه ﴿وهو على كل شيءٍ قدير﴾ أي قادر على كل شيء ، يغني ويفقر ، ويعز ويذل ، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، وهو كالدليل لما تقدم من أنَّ الملك والحمد له سبحانه ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن﴾ هذا تفصيلٌ لبعض آثار قدرته أي هو الذي خلقكم أيها الناس بهذا الشكل البديع المحكم ، فكان يجب على كل واحدٍ منكم الايمان به ، لكنْ منكم من كفر بربه ، ومنكم من آمن وصدَّق بخالقه قال الطبري : أي منكم كافرٌ بخالقه وأنه هو الذي خلقه ، ومنكم مصدِّق به موقنٌ أنه خالقه وبارئه[2] ، وقدَّم الكافر على المؤمن ، لكثرة الكفار وقلة المؤمنين ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ ﴿واللهُ بما تعملون بصير﴾ أي عالمٌ بأحوالكم ، مطَّلعٌ على أعمالكم ، لا تخفى عليه خافية من شئونكم وسيجازيكم عليها . . ثم فصَّل تعالى آثار قدرته ودلائل وحدانيته فقال ﴿خلق السَّموات والأرض بالحقِّ﴾ أي خلقهما بالحكمة البالغة ، المتضمنة لمصالح الدنيا والدين ، لا عبثاً ولا لهواً ﴿وصوَّركم فأحسن صُوركم﴾ أي خلقكم في أحسن صورة وأجمل شكل ، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم كقوله تعالى ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ فإن من نظر في شكل الإنسان وهيئته وتناسب أعضائه ، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر أنواع الحيوان ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب على وجهه[3] ﴿وإليه المصيرُ﴾ أي

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/٢١٢ .

(٢) تفسير الطبري ٧٨/٢٨ . (٣) فإن قيل : إن بعض الناس قبيح المنظر والشكل ، فالجواب أن ذلك لا يخرجه عن حسن الصورة الإنسانية ، وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه .

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾

وإليه تعالى وحده المرجع والمآب ، فيجازي كلاً بعمله ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي يعلم ما في الكائنات من أجرامٍ ومخلوقات ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ أي ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه من نواياكم وأعمالكم ﴿واللهُ عليمٌ بذات الصدور﴾ أي عالم بما في الصدور من الأسرار والخفايا ، فكيف تخفى عليه أعمالكم الظاهرة ؟ قال في البحر : نبَّه تعالى بعلمه بما في السمواتِ والأرض ، ثم بعلمه بما يخفيه العباد وما يعلنونه ، ثم بعلمه بما أكنَّته الصدور ، على أنه تعالى لا يغيب عن علمه شيء ، لا من الكليات ولا من الجزئيات ، فابتدأ بالعلم الشامل ، ثم بسرِّ العباد وعلانيتهم ، ثم بما تنطوي عليه صدورهم ، وهذا كله في معنى الوعيد ، إذ هو تعالى المجازي عليه بالثواب والعقاب[١] . . ثم ذكَّرهم تعالى بما حلَّ بالكفار قبلهم فقال ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل﴾ أي ألم يأتكم يا معشر قريش خبر كفار الأمم الماضية كقوم عاد وثمود ، ماذا حلَّ بهم من العذاب والنكال ! ! ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ أي فذاقوا العقوبة الوخيمة على كفرهم في الدنيا ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديد موجع ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي ذلك العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة ، بسبب أنه جاءتهم رسلهم بالمعجزات الواضحات ، والبراهين الساطعات ، الدالة على صدقهم ﴿فقالوا أبشرٌ يهدوننا﴾ ؟ أي فقالوا على سبيل الاستغراب والتعجب : أرسلٌ من البشر يصيرون هداةً لنا قال الرازي : أنكروا أن يكون الرسول بشراً ، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجراً[٢] ، وذلك لقلة عقولهم وسخافة أحلامهم ﴿فكفروا وتولَّوا﴾ أي فكفروا بالرسول ، وأعرضوا عن الإيمان واتباع هدى الرحمن ﴿واستغنى اللهُ﴾ أي استغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم قال الطبري : أي استغنى اللهُ عنهم ، وعن إيمانهم به وبرسله[٣] ﴿واللهُ غنيٌ حميد﴾ أي غنيٌ عن خلقه ، محمودٌ في ذاته وصفاته ، لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، لأنه مستغنٍ عن العالمين . . ثم أخبر تعالى عن إنكارهم للبعث بعد تكذيبهم للرسالة فقال ﴿زعم الذين كفروا أنْ لنْ يُبعثوا﴾ أي ادَّعى كفار مكة وظنوا أن اللهلن يبعثهم من قبورهم بعد موتهم أبداً ﴿قل بلى وربي لتبعثُنَّ﴾ أي قل لهم يا محمد : ليس الأمر كما زعمتم ، وأقسم بربي لتخرجن من قبوركم أحياء ولتبعثنَّ ﴿ثم لتنبؤُنَّ بما عملتم﴾ أي ثم لتخبرنَّ بجميع أعمالكم ، صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها ، وتُجزون بها ﴿وذلك على اللهِ يسير﴾ أي وذلك البعث والجزاء ، سهلٌ هينٌ على الله ، لأن الإعادة أسهل من الابتداء قال الرازي :

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٧٧ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣ . (٣) تفسير الطبري ٢٨/ ٧٨ .

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ﴾

أنكروا البعث بعد أن صاروا تراباً ، فأخبر تعالى أن إعادتهم أهونُ في العقول من إنشائهم[١] . . ولما بالغ في الإخبار عن البعث ، وذكر أحوال الأمم المكذبة ، أمر بالاعتصام بالإيمان والتمسك بالقرآن فقال ﴿فآمنوا باللّهِ ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ أي فصدِّقوا بالله وبرسوله وبهذا القرآن الذي أنزله على نبيه محمدﷺ فإنه النور الوضاء ، المبدّد للشبهات ، كما يبدد النور الظلمات ﴿واللّهُ بما تعملون خبير﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ أي واذكروا ذلك اليوم الرهيب ـ يوم القيامة ـ الذي يجمع الله فيه الخلائق كلها في صعيد واحد للحساب والجزاء قال ابن كثير : سُمي « يوم الجمع » لأن الله تعالى يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد ، يسمعهم الداعيَ وينفذهم البصر ، كقوله تعالى ﴿ذلك يومٌ مجموع له الناس وذلك يومٌ مشهود﴾[٢] ﴿ذلك يومُ التَّغابن﴾ أي ذلك هو اليوم الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان ، وذلك أن المؤمنين اشتروا الجنة بترك الدنيا ، واشترى الكفار النار بترك الآخرة ، فظهر غبن الكافرين قال الخازن : وأصله من الغبن وهو أخذ الشيء بدون قيمته ، والمغبونُ من غُبن أهله ومنازله في الجنة ، وذلك لأن كل كافر له أهلٌ ومنزل في الجنة لو أسلم ، فيظهر يومئذٍ غبن كل كافرٍ بتركه الإيمان ، ويظهر غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان[٣] ﴿ومن يؤمنْ باللّه ويعمل صالحاً يكفِّر عنه سيئاته﴾ أي ومن يصدِّق بالله ويعمل عملاً صالحاً ، يمح الله تعالى عنه ذنوبه ﴿ويدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ أي ويدخله جنات النعيم ، التي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الجنة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين في تلك الجنات أبد الحياة ، لا يموتون ولا يُخرجون منها ﴿ذلك الفوزُ العظيم﴾ أي ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه ، والسعادة التي لا سعادة بعدها ﴿والذينَ كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي والذين جحدوا بوحدانية الله وقدرته ، وكذبوا بالدلائل الدالة على البعث وبآيات القرآن الكريم ﴿أولئك أصحابُ النار خالدين فيها﴾ أي أولئك مآلهم جهنم ، ماكثين فيها أبداً ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئست النار مرجعاً ومستقراً لأهل الكفر والضلال . . ثم أخبر تعالى بأن كل ما يحدث في الكون بقضائه وإرادته فقال ﴿ما أصاب من مُصيبةٍ إلاَّ بإذنِ اللّه﴾ أي ما أصاب أحداً مصيبةٌ في نفسه أو ماله أو ولده ، إلا بقضاء الله وقدره ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ أي ومن يصدِّق بالله ويعلم أن كل حادثةٍ بقضائه وقدره ، يهدِ قلبه للصبر والرضا ويثبته على الإيمان قال ابن عباس : يهدِ قلبه لليقين ، حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه

(١) تفسير الفخر الرازي ٣٠/ ٢٣ . (٢) تفسير مختصر ابن كثير ٣/ ٥٠٩ . (٣) تفسير الخازن ٤/ ١٠٤ .

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾
اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا
لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ
وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

لم يكن ليصيبه[١] وقال **علقمة** : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى بها ويُسلم لقضاء الله[٢] **﴿والله بكل شيءٍ عليم﴾** أي هو تعالى عالمٌ بكل الأشياء ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء **قال القرطبي** : أي لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلَّم لأمره ، ولا كراهة من كرهه[٣] ولم يرض بقضائه **﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾** أي أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في كل ما شرع لكم من الأوامر والنواهي ، وكرَّر الأمر للتأكيد ولبيان أن طاعة الرسول واجبة كطاعة الله **﴿فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغُ المبين﴾** أي فإن أعرضتم عن إجابة الرسول فيما دعاكم إليه من الهداية والإيمان ، فليس عليه ضرر إنما ضرر ذلك عليكم ، إذ ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد أدى ما عليه ، والله ينتقم ممن عصاه وخالف أمره **﴿اللهُ لا إله إلا هوَ﴾** أي اللهُ جل وعلا لا معبود سواه ، ولا خالق غيره ، عليه الاعتماد وإليه المرجع والمآب **﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** أي فعليه وحده توكلوا أيها المؤمنون في جميع أموركم **قال الصاوي** : وهو تحريضٌ وحثٌ للنبيﷺ على التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، وفيه تعليمٌ للأمة ذلك[٤] ، بأن يلتجئوا إلى الله ويثقوا بنصره وتأييده **﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحْذروهم﴾** أي يا معشر المؤمنين إن بعض الزوجات والأولاد أعداء لكم ، يصدونكم عن سبيل الله ، ويثبطونكم عن طاعة الله ، فاحذروا أن تستجيبوا لهم وتطيعوهم **قال المفسرون** : إن قوماً أسلموا وأرادوا الهجرة ، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة ، فلم يهاجروا إلا بعد مدة ، فلما أتوا رسول اللهﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فندموا وأسفوا وهمُّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم فنزلت الآية الكريمة[٥] ، والآية تعم كلَّ من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد **﴿وإنْ تعفوا وتصفحوا وتغفروا﴾** أي وإن عفوتم عنهم في تثبيطكم عن الخير ، وصفحتم عما صدر منهم ، وغفرتم لهم زلاتهم **﴿فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيم﴾** أي فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة ، يعاملكم بمثل ماعاملتم **﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ﴾** أي ليست الأموالُ والأولادُ إلاّ اختباراً وابتلاءً من الله تعالى لخلقه ، ليعلم من يطيعه ومن يعصيه ، وقدَّم المال لأن فتنته أشدُّ **﴿واللهُ عنده أجرٌ عظيمٌ﴾** أي وما عند الله من الأجر والثواب أعظم من متاع الدنيا ، فلا تشغلكم الأموال والأولاد عن طاعة الله ، والآية ترغيبٌ في

(١) تفسير الطبري ٢٨/ ٨٠ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٥١٠ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ١٤٠ .
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٢١٢ . (٥) انظر سبب النزول المتقدم .

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

الآخرة وتزهيدٌ في الدنيا ، وفي الأموال والأولاد التي فتن الناسُ بها ﴿فاتقوا اللهَ ما استطعتم﴾ أي ابذلوا أيها المؤمنون في طاعة الله جهدكم وطاقتكم ، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون قال المفسرون : هذا في المأمورات وفضائل الأعمال يأتي الإِنسان منها بقدر طاقته ، وأما في المحظورات فلا بدَّ من اجتنابها بالكلية ويدل عليه ما روي عن النبيﷺ أنه قال : (إذا أمرتكم بأمرٍ فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه)[1] ﴿واسمعوا وأطيعوا﴾ أي واسمعوا ما توعظون به ، وأطيعوا فيما تُؤْمرون به وتُنهون عنه ﴿وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾ أي وأنفقوا في سبيل الله من أموالكم ، يكنْ خيراً لأنفسكم ﴿ومن يُوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ أي ومن سلم من البخل والطمع الذي تدعو إليه النفس ، فقد فاز بكل مطلوب ﴿إنْ تُقرضوا اللّه قرضاً حسناً يُضاعفه لكم﴾ أي إذا تصدقتم في سبيل الله عن طيب نفس ، فإن الله يضاعف لكم الأجر والثواب ، وفي تصوير الصدقة بصورة القرض تلطفٌ بليغ في الإِحسان إلى الفقراء ﴿ويغفر لكم﴾ أي ويمحُ عنكم سيئاتكم ﴿والله شكورٌ حليم﴾ أي شاكرٌ للمحسن إحسانه ، حليمٌ بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كثرة ذنوبهم ﴿عالم الغيبِ والشَّهادة﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب وحضر ، لا تخفى عليه خافية ﴿العزيز الحكيم﴾ أي الغالب في ملكه الحكيم في صنعه .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق في الاسم مثل ﴿فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمنٌ﴾ وكذلك بين ﴿الغيب والشهادة﴾ والطباق في الفعل مثل ﴿يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٢ ـ تقديم الجار والمجرور لإِفادة الحصر ﴿له الملك وله الحمد﴾ أي له وحده الملك والحمد .

٣ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿والنور الذي أنزلنا﴾ أطلق على القرآن النور بطريق الاستعارة ، فإن القرآن يزيل الشبهات ،كما يزيل النور الظلمات .

٤ ـ المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً . .﴾ الآية وبين ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها﴾ الآية .

٥ ـ الجناس الناقص ﴿وصوَّركم فأحسن صُورَكم﴾ لاختلاف الحركات في الشكل .

(١) أخرجه الشيخان .

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿أصاب . . مصيبة﴾ و ﴿يجمعكم ليوم الجمع﴾ .

٧ ـ الإطناب بتكرار الفعل زيادة في التأكيد واعتناءً بشأن الطاعة ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ .

٨ ـ صيغة المبالغة ﴿والله شكورٌ حليم﴾ لأن فعول وفعيل من صيغ المبالغة .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿إن تُقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم﴾ شبَّه الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء، بمن يُقرض الله قرضاً واجب الوفاء وذلك بطريق التمثيل ، وهو من لطيف الاستعارة وبديع العبارة .

١٠ ـ السجع المرصَّع لتوافق الفواصل مثل ﴿والله شكور حليم﴾ ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التغابن »

* * *



بين يدي السورة

* سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين ، كبيان أحكام الطلاق السني وكيفيته ، وما يترتب على الطلاق من العدة ، والنفقة ، والسكنى ، وأجر المرضع إلى غير ما هنالك من أحكام .

* وتناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق ـ الطلاق السُني ، والطلاق البدعي ـ فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق ، عند تعذر استمرار الحياة الزوجية ، ودعت إلى تطليق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع ، وهو أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها .

* وفي هذا التوجيه الإلهي دعوةٌ للرجال أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية ، فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، ولولا الضرورات القسرية لما أُبيح الطلاق لأنه هدم للأسرة .

* ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها ، لئلا تختلط الأنساب ، ولئلا يطول الأمد على المطلَّقة فيلحقها الضرر ، ودعت إلى الوقوف عند حدود الله ، وعدم عصيان أوامره .

* وتناولت السورة أحكام العدة ، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض لكبرٍ أو مرض ، وكذلك عدة الصغيرة ، وعدة الحامل فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد .

* وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى « تقوى الله » بالترغيب تارةً ، وبالترهيب أُخرى ، لئلا يقع حيفٌ أو ظلم من أحد الزوجين ، كما وضحت أحكام السكنى والنفقة .

* وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله ، وضربت الأمثلة بالأمم الباغية التي عتت عن أمر الله ، وما ذاقت من الوبال والدمار ، ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سموات طباق ، وخلق الأرضين ، وكلها براهين على وحدانية رب العالمين .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها النبيُ إذا طلقتم النساء . . إلى . . وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ من بداية السورة الكريمة الى نهايتها .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ

اللغــة : ﴿العِدَّة﴾ المدة التي تحتبس فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها ﴿أحصوا﴾ اضبطوا بطريق العَدَد ﴿حسبُه﴾ كافيه ﴿وُجْدكم﴾ طاقتكم ووسعكم ﴿ارتبتم﴾ شككتم ﴿كأين﴾ كثير ﴿عتت﴾ تكبرت وتجبرت وأعرضت ﴿نكراً﴾ منكراً شنيعاً وفظيعاً ﴿خُسراً﴾ خساراً وهلاكاً .

سبب النزول : أ ـ روى البخاري أن عبد الله بن عمر طلَّق امرأته وهي حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيَّظ رسول الله ﷺ ثم قال : ليراجعْها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلِّقها فليطلِّقها طاهراً قبل أن يمسَّها ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل[١] .

ب ـ وروي عن أنس قال : طلَّق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها النبيُّ إذا طلقتم النساء فطلقوهنَّ لعدتهن﴾ فقيل له : راجعْها فإنها صوَّامة قوَّامة ، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة[٢] .

ج ـ وروي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهنَّ ثلاثة قروء﴾ قال جماعة من الصحابة يا رسول الله : فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كِبَر فنزلت ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم أن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر . .﴾[٣] الآية .

التفسير : ﴿يا أيُّها النَّبيُّ إذا طلَّقتم النِّساء﴾ الخطابُ للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته ، وخصَّ هو بالنداء ﷺ تعظيماً له ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا أي افعل أنت وقومك ، فهو نداء على سبيل التكريم والتعظيم قال القرطبي : الخطابُ للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجماعة ﴿طلقتم﴾ تعظيماً وتفخيماً[٤] والمعنى : يا أيها النبي ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء ﴿فطلِّقوهُنَّ لعدتهنَّ﴾ أي فطلقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن ، وذلك في الطهر ، ولا تطلقوهن في الحيض قال مجاهد : أي طاهراً من غير جماع لقوله ﷺ : (فليطلقها طاهراً قبل أن يمسَّها ، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يُطلَّق لها النساء)[٥] قال المفسرون : وإنما نُهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر ، ولأن حالة الحيض منفِّرة للزوج ، تجعله يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهراً ، وكونه لم يجامعها في ذلك الطهر ، لئلا يحصل من ذلك الوطء حمل[٦] ، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وفي ذلك ضرر ظاهر ﴿وأحْصُوا العِدَّة﴾ أي اضبطوها وأكملوها ثلاثة أقراء كاملة لئلا تختلط الأنساب ﴿واتقوا اللَّهَ ربكم﴾ أي خافوا الله ربَّ العالمين ، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لا تخرجوهنَّ من بيوتهن﴾ أي لا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥١٢ . (٣) روح المعاني ٢٨/ ١٣٧ . (٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٤٨ .
(٥) الحديث في الصحيحين وانظر سبب النزول المتقدم . (٦) انظر حكمة التشريع في كتابنا روائع البيان ٢/ ٦٠٤ .

﴿بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ﴾

تخرجوهن من مساكنهن ، بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضي عدتهن ﴿ولا يخرجن إلاّ أن يأتينَ بفاحشةٍ مُبيِّنة﴾ أي ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن ، إلا إذا قارفت المطلقة عملاً قبيحاً كالزنى فتخرج لإقامة الحد عليها[1] قال في التسهيل : نهى الله سبحانه وتعالى أن يُخرج الرجلُ المرأة المطلَّقة من المسكن الذي طلقها فيه ، ونهاها هي أن تخرج باختيارها ، فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها ، ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة التصرف ، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة ، واختلف في الفاحشة التي تبيح خروج المعتدة فقيل : إنها الزنى فتخرج لإقامة الحد عليها ، وقيل إنه سوء الكلام مع الأصهار وبذاءة اللسان فتخرج ويسقط حقها من السكنى ، ويؤيده قراءة « إلا أن يفحشن عليكم »[2] ﴿وتلك حدودُ اللّهِ﴾ أي وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه ﴿ومن يتعدَّ حدود اللهِ فقد ظلم نفسه﴾ أي ومن يخرج عن هذه الأحكام ، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ، فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب ، وأضرَّ بها حيث فوَّت على نفسه إمكان إرجاع زوجته إليه قال الرازي : وهذا تشديدٌ فيمن يتعدى طلاق السنة ، ومن يطلق لغير العدة ﴿لا تدري لعلَّ اللّه يُحدث بعد ذلك أمراً﴾ أي لا تعرف أيها السامع ماذا يحدث اللهُ بعد ذلك الطلاق من الأمر ؟ فلعل الله يقلِّب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، فيجعله راغباً في زوجته بعدما كان كارهاً لها قال ابن عباس : يريد الندم على طلاقها ، والمحبة لرجعتها في العدة[3] ﴿فإذا بلغن أجلهنَّ﴾ أي فإذا شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ﴿فأمسكوهنَّ بمعروفٍ أو فارقوهنَّ بمعروف﴾ أي فراجعوهنَّ إلى عصمة النكاح مع الإحسان في صحبتهن كما أمر الله ، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن قال المفسرون : الإمساك بالمعروف هو إحسان العشرة وتوفية النفقة ، من غير قصد المضارة في الرجعة لتطول عليها العدة ، والفراق بالمعروف هو أداء الصَّداق ، والمتعة عند الطلاق ، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقها ﴿وأشهدوا ذوي عدلٍ منكم﴾ أي وأشهدوا عند الطلاق أو الرجعة ، شخصين من أهل العدالة والاستقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما قال في البحر : وهذا الإشهاد مندوبٌ إليه عند أبي حنيفة كقوله تعالى ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ وعند

(١) تفسير الفاحشة بالزنى هو قول ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة ، وروي عن ابن عباس أيضاً أنه البَذَاء باللسان على الأحماء وهو قول أبي بن كعب . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٦ .

(٣) قال ابن القيم :«إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من انفصام عرى الزوجية ، وموافقة عدوه إبليس حيث يفرح بافتراق الزوجين ، وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج أو الزوجة ، شرعه على وجه تحصل به المصلحة ، وتندفع به المفسدة وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، طلقة واحدة ، ثم يتركها حتى تنقضي عدتها ، فإن زالت أسباب الخلاف وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها ، وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هو الذي شرعه وأذن فيه » نقلاً عن محاسن التأويل ١٦/ ٥٨٣٢ .

﴿ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾

الشافعية واجبٌ في الرجعة ، مندوبٌ إليه في الفرقة[1] ﴿وأقيموا الشهادة للَّه﴾ أي اشهدوا بالحق دون تحيز لأحد ، خالصاً لوجه الله تعالى من غير تبديل ولا تغيير، ودون مراعاةٍ للمشهود له أو المشهود عليه ﴿ذلكم يُوعظُ به من كان منكم يُؤْمن باللَّه واليوم الآخر﴾ أي هذا الذي شرعناه من الأحكام ، إنما ينتفع ويتعظ به المؤمن الذي يخشى الله ، ويخاف الحساب والعقاب في الدار الآخرة ﴿ومنْ يتَّق اللَّهَ يجعل لهُ مخْرجاً ويرزقه منْ حيث لا يحْتسب﴾ أي ومن يراقب الله ويقف عند حدوده ، يجعل له من كل همٍ فرجاً ، ومن كل ضيقٍ مخرجاً ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يعلمه قال **مجاهد** : كنت عند ابن عباس فجاءه رجلٌ فقال : إنه طلَّق امرأته ثلاثاً ، فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه ، ثم قال : ينطلق أحدكم فيركب أحموقته ثم يقول : يا ابن عباس ، يا ابن عباس ! ! والله تعالى يقول ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً ، عصيت ربك وبانت منك امرأتك[2] **وقال المفسرون** : الآية عامة وقد نزلت في « عوف بن مالك الأشجعي » أسر المشركون ابنه ، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال : إن العدوَّ أسر ابني وجزعتْ أمه فما تأمرني؟ فقال ﷺ له : اتق الله واصبر ، وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول « لا حول ولا قوة إلا بالله » ففعل هو وامرأته ، فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستاقها فنزلت ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[3] ﴿ومن يتوكلْ على الله فهو حسْبُه﴾ أي ومن يعتمد على الله ، ويثقْ به فيما أصابه ونابه ، فإن الله كافيه **قال الصاوي** : أي من فوَّض إليه أمره كفاه ما أهمَّه ، والأخذُ بالأسباب لا ينافي التوكل ، لأنه مأمور به ولكنْ لا يعتمد على تلك الأسباب[4] ، وفي الحديث (لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً)[5] ﴿إنَّ اللهَ بالغُ أمره﴾ أي نافذُ أمره في جميع خلقه ، يبلغ ما يريد ولا يعجزه شيء **قال في التسهيل** : وهذا حضٌ على التوكل وتأكيدٌ له ، لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله ، توكَّل على الله وحده ولم يعوِّل على سواه[6] ﴿قد جعل اللَّهُ لكل شيءٍ قدراً﴾ أي قد جعل الله لكل أمرٍ من الأمور ، مقداراً معلوماً ووقتاً محدوداً ، حسب الحكمة الأزلية **قال القرطبي** : أي جعل لكل شيءٍ من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه[7] . . ثم بيَّن سبحانه حكم المطلَّقة التي لا تحيض لصغرها أو لكبر سنها فقال ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إنْ ارتبتم﴾ أي والنسوة اللواتي انقطع حيضهن لكبر سنهنَّ ، إن شككتم وجهلتم كيف عدتهن ؟ فهذا حكمهن

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٨٢ . (٢) عن محاسن التأويل ١٦/ ٥٨٣٨ . (٣) انظر القرطبي ١٨/ ١٦٠ والطبري ٢٨/ ٩٠ .
(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ص٢١٥ . (٥) اخرجه الترمذي . (٦) التسهيل ٤/ ١٢٨ . (٧) القرطبي ١٨ص١٦٨ .

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۞ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ﴾

﴿فعدتهن ثلاثةُ أشهرٍ﴾ أي فعدةُ الواحدة منهن ثلاثة أشهر ، كل شهرٍ يقوم مقام حيضة **﴿واللائي لم يحضن﴾** أي وكذلك اللواتي لم يحضن لصغرهن عدتهن ثلاثة أشهر **﴿وأولاتُ الأحمال أجلهنَّ أن يضعن حملهنَّ﴾** أي والمرأة الحامل تنتهي عدتها بوضع الحمل ، سواءً كانت مطلقة ، أو متوفى عنها زوجها **﴿ومن يتَّقِ اللَّه يجعل لهُ منْ أمرهِ يُسراً﴾** أي ومن يخشى الله في أقواله وأفعاله ، ويجتنب ما حرَّم الله عليه ، يسهِّل عليه أمره ويوفقه لكل خير **﴿ذلك أمرُ اللَّهِ أنزلهُ إليكم﴾** أي ذلك هو حكم الله وشرعه الحكيم ، أنزله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به ، وتعملوا بمقتضاه **﴿ومنْ يتَّقِ اللَّهَ يُكفر عنه سيئاته ويُعظم له أجراً﴾** أي ومن يتَّق ربه يمح عنه ذنوبه ، ويضاعف له الأجر والثواب قال الصاوي : كرر التقوى لعلمه سبحانه وتعالى أن النساء ناقصات عقلٍ ودين ، فلا يصبر على أمورهن إلا أهل التقوى[1] وقال في البحر : لمَّا كان الكلام في أمر المطلقات ، وكنَّ لا يطلَّقن إلا عن بغض أزواجهنَّ لهنَّ ، وقد ينسب الزوج إليها ما يشينها وينفِّر الخُطَّاب عنها ، فلذلك تكرر الأمر بالتقوى ، وجاء مبرزاً في صورة شرط وجزاء **﴿ومن يتَّقِ الله يجعل﴾**[2] الآية **﴿أسكنوهُنَّ منْ حيثُ سكنتُم منْ وُجدكم﴾** أي أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها ، على قدر طاقتكم ومقدرتكم ، فإن كان موسراً وسَّع عليها في المسكن والنفقة ، وإن كان فقيراً فعلى قدر الطاقة **﴿ولا تُضاروهنَّ لتضيقوا عليهنَّ﴾** أي ولا تضيقوا عليهن في السكنى والنفقة ، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء **﴿وإنْ كُنَّ أولاتِ حملٍ﴾** أي وإن كانت المطلَّقة حاملاً **﴿فأنفقوا عليهنَّ حتَّى يضعن حمْلهُنَّ﴾** أي فعلى الزوج أن ينفق عليها ـ ولو طالت مدة الحمل ـ حتى تضع حملها **﴿فإنْ أرضعنَ لكُمْ﴾** أي فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده **﴿فآتوهُنَّ أُجُورهنَّ﴾** أي فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة ، لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء قال في التسهيل : والمعنى إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم ، فآتوهنَّ أجرة الرضاع وهي النفقة وسائر المؤن[3] **﴿وائتمروا بينكم بمعروف﴾** أي وليأمر كلٌ منهما صاحبه بالخير ، من المسامحة والرفق والإحسان ، قال القرطبي : أي وليَقبل بعضكم من بعضٍ ما أمره به من المعروف الجميل ، والمعروف منها : إرضاعُ الولد من غير أجرة ، والمعروف منه : توفيرُ الأجرة عليها للإرضاع[4] **﴿وإنْ تعاسرتم﴾** أي تضايقتم وتشددتم ، وعسر الاتفاق بين الزوجين ، فأبى الزوج أن يدفع لها ما تطلب ، وأبت الزوجة أن ترضعه بأنقص من ذلك الأجر **﴿فسترضع لهُ أُخرى﴾** أي فليستأجر لولده مرضعةً

(١) حاشية الصاوي ٤/ ٢١٧ . (٢) البحر المحيط ٨/ ٢٨٤ .
(٣) التسهيل ٤/ ١٢٩ . (٤) تفسير القرطبي ١٨/ ١٦٩ .

أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا
مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا
حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨﴾ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ
عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾

غيرها ، وهو خبرٌ بمعنى الأمر أي فليسترضعْ لولده مرضعةً أُخرى قال أبو حيان : وفيه عتابٌ للأم لطيف كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها : سيقضيها غيرك ، تريد أنها لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم[١] قال الضحاك : إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم يقبل أُجبرت أمه على الرضاع بالأجر[٢] ﴿لِيُنفق ذو سعةٍ من سعته﴾ هذا بيانٌ لقدر الإنفاق والمعنى : لينفقْ الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير ، على قدر وسعه وطاقته ، قال في التسهيل : وهو أمرٌ بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ، فلا يكلف الزوج ما لا يطيق ، ولا تُضيَّع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً ، وفي الآية دليلٌ على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس[٣] يسراً وعسراً ﴿ومن قُدر عليه رزقُه﴾ أي ومن ضُيِّق عليه رزقه فكان دون الكفاية ﴿فلينفقْ ممَّا آتاهُ اللهُ﴾ أي فلينفق على مقدار طاقته ، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾ أي لا يكلف الله أحداً إلا بقدر طاقته واستطاعته ، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني قال أبو السعود : وفيه تطييبٌ لقلب المعسر ، وترغيبٌ له في بذل مجهوده[٤] ، وقد أكد ذلك الوعد بقوله ﴿سيجعل اللهُ بعد عُسرٍ يُسراً﴾ أي سيجعل الله بعد الضيق الغنى ، وبعد الشدة السعة والرخاء ، وفيه بشارة للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم . . ثم حذَّر تعالى من عصيانه وتعدي حدوده ، وضرب الأمثال بالأمم السابقة فقال ﴿وكأيِّن من قريةٍ﴾ أي وكثير من أهل قرية من الأمم السالفة ﴿عتَت عن أمر ربِّها ورُسله﴾ أي طغت وتمردت على أوامر الله وأوامر رسله ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ أي فجازيناها على عصيانها وطغيانها بأنواع العذاب الأليم ، من الجوع والقحط وعذاب الاستئصال ﴿وعذبناها عذاباً نُكراً﴾ أي عذاباً منكراً عظيماً يفوق التصور ﴿فذاقت وبال أمْرها﴾ أي فذاقت عاقبة كفرها وطغيانها وتمردها على أوامر الله ﴿وكان عاقبةُ أمرها خُسراً﴾ أي وكانت نتيجة بغيها الهلاك والدمار ، والخسران الذي ما بعده خسران . . ولمَّا ذكر ما حلَّ بالأمم الطاغية ، أمر المؤمنين بتقوى الله ، تحذيراً من عقابه لئلا يصيبهم ما أصاب أولئك المجرمين فقال ﴿أعدَّ اللهُ لهم عذاباً شديداً﴾ أي هيأ الله لهم في الآخرة عذاب جهنم الشديد المؤبد ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي فخافوا الله واحذروا بطشه وانتقامه يا أصحاب العقول السليمة ﴿الذين آمنوا﴾ أي أنتم يا معشر المؤمنين الذين صدقتم بالله ورسوله ﴿قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ أي قد أنزل الله إليكم وحياً يتلى

(١) تفسير البحر المحيط ٨/ ٢٨٥. (٢) تفسير القرطبي ١٨/ ١٦٩. (٣) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٢٩. (٤) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٢ .

رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

وهو القرآنُ الحكيم[1] ﴿رسولاً يتلوا عليكم آياتِ اللّه مبينات﴾ أي وأرسل إليكم رسولاً وهو محمد ﷺ يقرأ عليكم آياتِ الله ، واضحات جليات ، تبيِّن الحلال والحرام وما تحتاجون إليه من الأحكام قال في البحر : والظاهر أن الذكر هو القرآن ، وأن الرسول هو محمد ﷺ[2] ﴿ليُخرج الّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات من الظُّلُمات إلى النُّور﴾ أي ليخرج المؤمنين المتقين ، من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإِيمان والعلم ﴿ومن يُؤمن باللّه ويعملْ صالحاً﴾ أي ومن يُصدق بالله ويعمل بطاعته ﴿يُدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يدخله في الآخرة جنات النعيم ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في تلك الجنان ـ جنان الخلد ـ أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿قد أحسن الله له رزقاً﴾ أي قد طيَّب الله رزقهم في الجنة ووسَّعه لهم ، لأن نعيمها دائم لا ينقطع قال الطبري : أي وسَّع لهم في الجنات الرزق، وهو ما رزقهم من المطاعم والمشارب وسائر ما أعدَّ لأوليائه فيها فطيَّبه لهم[3] ، وفي الآية معنى التعجب والتعظيم لما رزق الله المؤمن من الثواب . . ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته، وعظيم سلطانه وجلاله فقال ﴿اللّهُ الذي خلق سبع سمواتٍ ومن الأرض مثلهنَّ﴾ أي اللهُ العظيم الكبير هو الذي خلق بقدرته سبع سمواتٍ طباقاً[4] ، ومن الأرض كذلك خلق سبع أرضين بعضها فوق بعض بدون فتوق بخلاف السموات ﴿يتنزَّل الأمرُ بينهن﴾ أي يتنزل وحيُ الله ويجري أمره وقضاؤه بين السموات والأرضين ﴿لتعلموا أن الله على كل شيءٍ قدير﴾ أي لتعلموا أن من قدر على خلق ذلك قادر على كل شيء ﴿وأن اللّهَ قد أحاطَ بكل شيء علماً﴾ أي ولتعلموا أنه تعالى عالم بكل شيء ، لا تخفى عليه خافية .

البَلاَغَة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق ﴿فأمسكوهنَّ بمعروفٍ أو فارقوهن﴾ وكذلك ﴿بعد عسرٍ يسراً﴾ .

---

(١) اختار بعض المفسرين أن المراد بالذكر هو الرسول ﷺ بدليل أنه أبدل منه قوله ﴿رسولاً يتلو﴾ وإليه ذهب الطبري وأبو السعود ، وما ذكرناه هو أرجح الأقوال أن المراد بالذكر « القرآن » وبالرسول محمد ﷺ وهو منصوب بفعل محذوف تقديره وأرسل رسولاً وهو اختيار ابن عطية وصاحب البحر المحيط .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٨٦ . (٣) تفسير الطبري ٢٨/ ٩٨ . (٤) لا خلاف بين العلماء أن السموات سبع ، وأما الأرض فاختلف فيها فقيل : إنها سبع أرضين لظاهر الآية وللحديث الصحيح « من ظلم قيد شبر من أرض طوّقه من سبع أرضين » وقيل : إنها أرض واحدة وأن المماثلة ليست في العدد وإنما هي في الخلق والابداع أي مثلهن في الإِبداع والإِحكام ، والأول أظهر والله أعلم .

٢ ـ الإظهار في موضع الإضمار للتهويل ﴿وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله﴾ .

٣ ـ الالتفات لمزيد الاهتمام ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ ورد بطريق الخطاب والأصل أن يكون بطريق الغائب « لا يدري » .

٤ ـ إيجاز الحذف ﴿واللائي لم يحضن﴾ حذف منه الخبر أي فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً .

٥ ـ تكرار الوعيد للتفظيع والترهيب ﴿فحاسبناها حساباً شديداً ، وعذبناها عذاباً نُكراً ، فذاقت وبال أمرها﴾ الآية .

٦ ـ المجاز المرسل ﴿وكأيّن من قرية﴾ يراد بها أهل القرية من باب تسمية الحال باسم المحل .

٧ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿ليخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى النور﴾ استعار الظلمات للضلال والكفر ، واستعار النور للهدى والايمان ، وهو من روائع البيان ، وجلال تعبير القرآن .

٨ ـ السجع المرصَّع كأنه الدر والياقوت مثل ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً . . يجعل له من أمره يُسراً . . ويُعظم له أجراً . . وكان عاقبةُ أمرها خُسراً﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الطلاق »

* * *



بين يدي السورة

* سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشئون التشريعية ، وهي هنا تعالج قضايا وأحكاماً تتعلق « ببيت النبوة » وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات ، وذلك في إطار تهيئة البيت المسلم ، والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة .

* تناولت السورة الكريمة في البدء الحديث عن تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته « مارية القبطية » على نفسه ، وامتناعه عن معاشرتها إرضاءً لرغبة بعض زوجاته الطاهرات ، وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً ، يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يُضيِّق على نفسه ما وسَّعه الله له ﴿يا أيها النبيُ لم تُحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لك تبتغي مرضاة أزواجك . .﴾ الآية .

* ثم تناولت السورة أمراً على جانب كبير من الخطورة ألا وهو « إفشاء السر » الذي يكون بين الزوجين ، والذي يهدِّد الحياة الزوجية ، وضربت المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسرَّ إلى حفصة بسرٍّ واستكتمها إياه ، فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع ، مما أغضب الرسول حتى همَّ بتطليق أزواجه ﴿وإذْ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً . .﴾ الآية .

* وحملت السورة الكريمة حملة شديدةً عنيفة ، على أزواج النبي ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس ، وغيرة بعضهن من بعض لأمورٍ يسيرة ، وتوعدتهن بإبدال الله لرسوله عليه السلام بنساءٍ خير منهنَّ ، انتصاراً لرسول الله ﷺ ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، مسلماتٍ ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات . .﴾ الآية .

* وختمت السورة بضرب مثلين : مثل للزوجة الكافرة في عصمة الرجل الصالح المؤمن ، ومثلاً للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر الكافر ، تنبيهاً للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحدٌ عن أحد ، ولا ينفع حسب ولا نسب ، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحاً ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ـ أي كفرتا بالله ولم تؤمنا ـ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ● وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن

لي عندك بيتاً في الجنة . .﴾ الآيات . وهو ختم رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها النبي لم تحرمُ ما أحلَّ الله لك . . إلى . . وكانت من القانتين﴾ من آية (١) إلى آية (١٢) نهاية السورة .

اللغَـــة : ﴿تحلَّة﴾ تحليل اليمين بالكفارة ﴿صغت﴾ مالت عن الحقِّ وزاغت ، وأصغى الإناء أماله ﴿قانتات﴾ مطيعات من القنوت وهو ملازمة الطاعة مع الخضوع ﴿نصوحاً﴾ خالصة صادقة ، والتوبةُ النَّصوح هي التي لا عودة بعدها إلى الذنب ، سميت نصوحاً لما فيها من الصدق والإخلاص يقال : هذا عسلٌ ناصح إذا خلص من الشمع[١] ﴿أغلظ﴾ من الغلظة وهي الشدة ﴿أحصنت﴾ عفَّت وصانت نفسها عن مقارفة الفاحشة .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي أنَّ النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه ، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبويها فأذن لها ، فلما خرجت أرسل إلى جاريته « مارية القبطية » فعاشرها في بيت حفصة ، فرجعت فوجدتها في بيتها ، فغارت غيرةً شديدة ، وقالت : أدخلتها بيتي في غيابي وعاشرتها على فراشي ؟ ! ما أراك فعلت هذا إلا لهواني عليك ! فقال لها رسول الله ﷺ مسترضياً لها : إني حرمتها عليَّ ولا تخبري بذلك أحداً ، فلما خرج من عندها قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة ـ وكانتا متصافيتين ـ وأخبرتها بسرِّ النبي ﷺ فغضب رسول الله وحلف ألا يدخل على نسائه شهراً واعتزلهن فأنزل الله ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك . .﴾ الآية[٢] .

ب ـ وروي أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجه « زينب » رضي الله عنها فيشرب عندها عسلاً ، فاتفقت عائشة وحفصة على أن تقول له كل واحدة إذا دنا منها : أكلتَ مغافير ـ وهو طعام حلوٌ كريه الريح ـ فلما مرَّ على حفصة قالت له ذلك ، ثم دخل على عائشة فقالت له مثل ذلك ـ وكان ﷺ يكره أن توجد منه رائحة كريهة ـ فقال عليه السلام : لا ولكني شربت عسلاً عند زينب ولن أعود له وحلف فنزلت ﴿يا أيها النبي لم تُحرم ما أحل اللهُ لك . .﴾[٣] الآيات .

---

(١) القرطبي ١٨/ ١٩٩ . (٢) انظر تفسير الطبري ٢٨/ ١٠١ وحاشية الصاوي ٤/ ٢١٩ .

(٣) الرواية الأولى عند المفسرين أشهر في سبب النزول ، وهي أن الرسول ﷺ حرَّم عليه « مارية القبطية » وقد أخرجها الدار قطني عن ابن عباس ، والرواية الثانية ذكرت في الصحيحين بأوسع من هذا وهي أصح إسناداً من الأولى ، ولكن كونها سبباً للنزول مستبعد ، والذي يرجح الرواية الأولى أمور : أن مثل تحريم بعض النساء مما يبتغى به مرضاة بعض الزوجات لا شرب العسل أو عدمه ، ثانياً أن الاهتمام بإنزال سورة فيها الوعيد والتهديد لأزواج رسول الله بالطلاق واستبدالهن بنساء خير منهن ، وأن الله وملائكته وصالح المؤمنين عونٌ لرسول الله ﷺ ، يدل على وجود تنافس بينهن وغيرة بعضهن من بعض ، مما أدى إلى إيذاء رسول الله ﷺ فعلاً حتى حرَّم بعض جواريه إرضاءً لهن ، واستكتم البعض منهن الأمر فأفشين السرَّ وهذا يرجح ما ذكرناه وقد قال العلامة ابن كثير : وكون قضية شرب العسل سبباً للنزول فيه نظر ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

التفسير : ﴿يا أيها النبيُّ لمَ تُحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لك﴾ الخطاب بلفظ النبوة مشعرٌ بالتوقير والتعظيم ، والتنويه بمقامه الرفيع الشريف ، فلم يخاطبه باسمه العلم كما خاطب سائر الرسل بقوله « يا إبراهيم ، يا نوحُ ، يا عيسى بن مريم » وإنما خاطبه بلفظ النبوة أو الرسالة ، وذلك أعظم دليلٍ وبرهانٍ على أنه ـ صلوات الله عليه ـ أفضل الأنبياء والمرسلين ومعنى الآية : يا أيها الموحى إليه من السماء ، المنبأ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام ، لماذا تمنع نفسك ما أحلَّ الله لك من النساء ؟ ! قال المفسرون : إن رسول الله ﷺ خلا بأم ولده « مارية » في بيت حفصة وعلمت بذلك فقال لها : اكتمي عليَّ وقد حرمت مارية على نفسي فنزلت الآية ﴿يا أيها النبيُّ لم تُحرّم ما أحلَّ الله لك﴾[1] وفي افتتاح العتاب من حسن التلطف ما لا يخفى ، فقد عاتبه على إتعاب نفسه والتضييق عليها من أجل مرضاة أزواجه ، كأنه يقول : لا تتعب نفسك في سبيل أزواجك ، وأزواجك يسعين في مرضاتك ، فأرح نفسك من هذا العناء ﴿تبتغي مرضاة أزواجك﴾ ؟ أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحلَّ الله لك ؟ قال في التسهيل : يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة ، وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية ، وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته[2] ﴿واللهُ غفورٌ رحيم﴾ أي والله واسع المغفرة ، عظيم الرحمة ، حيث سامحك في امتناعك عن مارية ، وإنما عاتبك رحمة بك ، وفي هذا إشارة إلى أن عتابه في ذلك إنما كان كرامةً له ، وإنما وقع العتاب لتضييقه عليه السلام على نفسه ، وامتناعه مما كان له فيه أنسٌ ومتعة ، وبئس ما قاله الزمخشري في أن هذا كان منه ﷺ زلة لأنه حرَّم ما أحل الله له الخ فإن هذا القول قلة أدب مع مقام النبوة ، وجهل بصفات المعصوم ، فلم يكن منه صلوات الله عليه تحريمٌ للحلال كما زعم حتى تعتبر مخالفة ومعصية ، وإنما امتنع عن بعض إمائه تطييباً لخاطر بعض أزواجه ، فعاتبه الله تعالى عليه رفقاً به ، وتنويهاً بقدره ، وإجلالاً لمنصبه عليه السلام أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، جرياً على ما أُلف من لطف الله تعالى به[3] ﴿قد فرضَ اللهُ لكم تحلَّة أيمانكم﴾ أي قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة ﴿واللهُ مولاكم﴾ أي واللهُ وليكم وناصركم ﴿وهو العليمُ الحكيمُ﴾ أي وهو العليم بخلقه الحكيم في صنعه ، فلا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه

(١) انظر سبب النزول المتقدم ففيه توضيح وتفصيل للقصة . (٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٣٠ .
(٣) شنَّ صاحب « الانتصاف على الكشاف » الغارة على الزمخشري وشنَّع عليه وهو محقٌ في ذلك ، لأن من نظر إلى لطف العتاب عرف حقيقة الأمر والصواب .

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

الحكمة والمصلحة . . ثم شرع تعالى في بيان القصة التي حدثت لرسول الله ﷺ مع بعض زوجاته فقال ﴿وإذْ أسـرَّ النبـيُ إلى بعض أزواجه حديثـاً﴾ أي واذكر حين أسرَّ النبي محمد ﷺ إلى زوجته حفصة خبراً واستكتمها إياه قال ابن عباس : هو ما أسرَّ إلى حفصة من تحريم الجارية على نفسه ، كما أخبرهـا بأن الخلافة بعده تكون في أبي بكر وعمر[1] ، وطلب منها ألا تخبر بذلك أحداً ﴿فلمَّـا نبَّـأت بـه﴾ أي فلما أخبرت بذلك السرَّ عائشة وأفشته لها ﴿وأظهـره اللـهُ عليـه﴾ أي وأطلع الله نبيه بواسطة جبريل الأمين على إفشائها للسرّ ﴿عـرَّف بعضـهُ وأعرض عـن بعض﴾ أي أعلمها وأخبرها رسـول اللـه ﷺ ببعض الحديث الذي أفشته معاتباً لها ، ولم يخبرها بجميع ما حصل منها حياءً منه وكرماً ، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات ، والتقصير في اللوم والعتاب قال الحسن : ما استقصى كريمٌ قط ، وقال سفيان : ما زال التغافل من شيم الكرام[2] قال الخازن : المعنى أن النبي ﷺ أخبر حفصة ببعض ما أخبرت به عائشة وهو تحريم مارية على نفسه ، وأعرض عن ذكر الخلافة لأنه ﷺ كره أن ينتشر ذلك في الناس[3] ﴿فلمَّـا نبَّـأها بـه﴾ أي فلما أخبر الرسول حفصة بأنها قد أفشت سرَّه ﴿قالتْ مـن أنبـأك هـذا﴾ أي قالت : من أخبرك يا رسول الله بأني أفشيتُ سرك ؟ قال أبو حيان : ظنت حفصة أن عائشة فضحتها ـ وكانت قد استكتمتها ـ فقالت من أنبأك هذا على سبيل التثبت ، فأخبرها أن الله جل وعلا هو الذي نبأه به فسكتت وسلَّمت[4] ﴿قـال نبأنـي العليـمُ الخبيـر﴾ أي فقال عليه السلام : أخبرني بذلك ربُّ العزة ، العليم بسرائر العباد ، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ﴿إن تتوبـا إلـى اللّـه﴾ الخطاب لحفصـة وعائشـة ، خاطبهما بطريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما وحملهما على التوبـة ممـا بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء ، وجوابه محذوف تقديره أي إن تبتما كان خيراً لكما من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء ﴿فقـد صغَـت قلوبُكمـا﴾ أي فقد زاغت ومالت قلوبكما عما يجب عليكما من الإخلاص لرسول الله ، بحب ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه[5] ﴿وإن تظاهـرا عليه﴾ أي وإن تتعاونا على النبي ﷺ بما يسوءه ، من الوقيعة بينه وبين سائر نسائه ﴿فإنَّ اللـهَ هـو مولاه﴾ أي فإنَّ الله تعالى هو وليُّه وناصره ، فلا يضره ذلك التظاهر منكما ﴿وجبريـلُ وصالـحُ المؤمنيـن﴾ أي وجبريل كذلك وليه ونـاصره ، والصالحـون من المؤمنـين قال ابـن عباس : أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمر فقد كانا عوناً له عليه الصلاة والسلام عليهما قال في التسهيل : معنى الآية : إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوءه من إفراط الغيرة ، وإفشاء سره ونحو ذلك ، فإنَّ له من ينصره

(١) قال الرازي : لما رأى النبي ﷺ الغيرة في وجه حفصة أراد أن يترضاها ، فأسرَّ إليها بشيئين : تحريم الأمة على نفسه ، والبشارة بأن الخلافة بعده في أبي بكر وعمر اهـ التفسير الكبير ٣٠/٤٣ .

(٢) روح المعاني ٢٨/ ١٥٠ . (٣) تفسير الخازن ٤/١١٧ . (٤) البحر المحيط ٨/ ٢٩٠ . (٥) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٤ .

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا

ويتولاه ، وقد ورد في الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : ما يشقُّ عليك من شأن النساء ؟ فإن كنت طلقتهنَّ فإنَّ الله معك وملائكته وجبريل ، وأبو بكرٍ وعمر معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر[1] ﴿والملائكـةُ بعـد ذلـكَ ظهيـرٌ﴾ أي والملائكة الأبرار بعد حضرة الله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين أعوانٌ لرسول الله ﷺ على من عاداه ، فماذا يفيد تظاهر امرأتـين على من هؤلاء أعوانه وأنصارهُ ؟ ! أفرد ﴿جبريل﴾ بالذكر تعظيماً له ، وإظهاراً لمكانته عند الله تعالى فيكون قد ذُكر مرتين : مرةً بالإفراد ، ومرةً في العموم ، ووسَّط ﴿صالح المؤمنين﴾ بين جبريل والملائكة تشريفـاً لهم ، واعتناءً بهم ، وإشادةً بفضل الصلاح ، وختم الآية بذكر ﴿الملائكة﴾ أعظم المخلوقات وجعلهم ظهراء للنبي عليه السلام ليكون أفخم بالنبي صلوات الله عليه ، وعظم مكانته ، والانتصار له ، إذ هم بمثابة جيشٍ جرارٍ ، يملأ القفار ، نصرةً للنبي المختار ، فمن ذا الذي يستطيع أن يناوىء الرسول ﷺ بعد ذلك[2] ؟ ثم خوَّف تعالى نساء النبي بقوله ﴿عسـى ربُّـه إن طلَّقكـنَّ﴾ قال المفسرون : ﴿عسى﴾ من الله واجبٌ أي حقٌ واجب على الله إن طلقكنَّ رسوله ﴿أنْ يُبدلـه أزواجـاً خيـراً منكـنَّ﴾ أي أن يعطيه عليه السلام بدلكُـنَّ زوجاتٍ صالحاتٍ خيراً وأفضل منكنَّ قال القرطبي : هذا وعدٌ من الله تعالى لرسوله لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه نساءً خيراً منهن ، والله عالمٌ بأنه لا يطلقهن ، ولكنْ أخبر عن قدرته ، على أن رسوله لو طلقهن ، لأبدله خيراً منهن ، تخويفاً لهنَّ[3] . . ثم وصف تعالى هؤلاء الزوجات اللواتي سيبدله بهنَّ فقال ﴿مسلمـاتٍ﴾ أي خاضعات مستسلماتٍ لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﴿مؤمنـاتٍ﴾ أي مصدقاتٍ بالله وبرسوله ﴿قانتاتٍ﴾ أي مطيعاتٍ لما يُؤمرن به ، مواظباتٍ على الطاعة ﴿تائبـاتٍ﴾ أي تائباتٍ من الذنوب ، لا يصررن على معصية ﴿عابـداتٍ﴾ أي متعبداتٍ لله تعالى يكثرن العبادة ، كأنَّ العبادة امتزجت بقلوبهن حتى صارت سجيةً لهـن ﴿سـائحـاتٍ﴾ أي مسافـراتٍ مهاجـراتٍ إلى اللـه ورسوله[4] ﴿ثيبـاتٍ وأبكـاراً﴾ أي منهنَّ ثيباتٍ ، ومنهن أبكاراً قال ابن كثير : قسمهن إلى نوعين ليكون ذلك أشهى إلى النفس ، فإنَّ التنوع يبسط النفس[5] ، وإنما دخلت واو العطف هنا ﴿ثيباتٍ وأبكاراً﴾ للتنويع والتقسيم ، ولو سقطت لاختل المعنى ، لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان ، فتدبر سرَّ القرآن . . ولما وعظ نساء الرسول موعظةً خاصة ، أتبع ذلك بموعظةٍ عامةٍ للمؤمنين فقال ﴿يا أيهـا الذيـن آمنـوا قُوا

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٣١ .
(٢) لا يخفى أن الكلام في الآية مسوقٌ للمبالغة ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكةُ بعد ذلك ظهير﴾ وإلا فكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ١٩٣ .
(٤) قال ابن عباس : ﴿سائحات﴾ أي صائمات واستدل بحديث (سياحةُ هذه الأمة الصيام) وقال زيد بن أسلم : ﴿سائحات﴾ أي مهاجرات وتلا قوله تعالى ﴿التائبون العابدون السائحون﴾ أي المهاجرون ، ولعل هذا الرأي أرجح لأنه يتفق مع المعنى اللغوي للسياحة وهي السفر في الأرض للاعتبار ، وقد رجح ابن كثير الرأي الأول والله أعلم . (٥) ابن كثير ٣/ ٥٢٢ .

مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ

أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله وأسلمتم وجوهكم لله ، احفظوا أنفسكم ، وصونوا أزواجكم وأولادكم ، من نارٍ حامية مستعرة ، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات ، وبتأديبهم وتعليمهم قال مجاهد : أي اتقوا الله ، وأوصوا أهليكم بتقوى الله وقال الخازن : أي مروهم بالخير ، وانهوهم عن الشر ، وعلموهم وأدبوهم حتى تقوهم بذلك من النار[١] ، والمراد بالأهل النساءُ والأولاد وما ألحق بهما ﴿وقودها الناسُ والحجارة﴾ أي حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم هو الخلائق والحجارة قال المفسرون : أراد بالحجارة حجارة الكبريت ، لأنها أشد الأشياء حراً ، وأسرع اتِّقاداً ، وعنى بذلك أنها مفرطة الحرارة ، تتقد بما ذكر ، لا كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه قال ابن مسعود : حطبها الذي يلقى فيها بنو آدم ، وحجارةٌ من كبريت ، أنتن من الجيفة[٢] ﴿عليها ملائكةٌ غلاظٌ شِداد﴾ أي على هذه النار زبانيةٌ غلاظ القلوب ، لا يرحمون أحداً ، مكلفون بتعذيب الكفار قال القرطبي : المراد بالملائكة الزبانية ، وهم غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ، لأنهم خلقوا من الغضب ، وحُبِّب إليهم عذاب الخلق كما حُبب لبني آدم أكل الطعام والشراب[٣] ﴿لا يعصون اللّـهَ ما أمرهم﴾ أي لا يعصون أمر الله بحالٍ من الأحوال ﴿ويفعلون ما يُؤْمرون﴾ أي وينفِّذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير . . ثم يقال للكفار عند دخولهم النار ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعْتذروا اليومَ﴾ أي لا تعتذروا عن ذنوبكم وإجرامكم ، فلا ينفعكم اليوم الاعتذار ، لأنه قد قُدِّم إليكم الإنذار والإعذار ﴿إنما تُجْزون ما كنتم تعْملون﴾ أي إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة ، ولا تظلمون شيئاً كقوله تعالى ﴿اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ ثم دعا المؤمنين إلى التوبة الصادقة الناصحة فقال ﴿يا أيها الذين آمنوا تُوبوا إلى اللّـه توبةً نُصوحاً﴾ أي توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً صادقةً خالصة ، بالغةً في النصح الغاية القصوى ، سئل عمر عن التوبة النصوح فقال : هي أن يتوب ثم لا يعود إلى الذنب ، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع[٤] قال العلماء : التوبة النصوح هي التي جمعت ثلاثة شروط : الإقلاع عن الذنب ، والندم على ما حدث ، والعزم على عدم العودة إليه ، وإن كان الحق لآدمي زيد شرط رابع وهو : ردُّ المظالم لأصحابها ﴿عسَى ربُكم أن يُكفِّر عنكم سيئاتكم﴾ أي لعل الله يرحمكم فيمحو عنكم ذنوبكم قال المفسرون : « عسى » من الله واجبة بمنزلة التحقيق ، وهذا إطماعٌ من الله لعباده في قبول التوبة ، تفضلاً منه وتكرماً ، لأن العظيم إذا وعد وفَّى ، وعادة الملوك أنهم إذا أرادوا فعلا قالوا « عسى » فهو بمنزلة المحقق[٥] ﴿ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ أي ويدخلكم في الآخرة

(١) تفسير الخازن ٤/ ١٢١ . (٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٣ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ١٩٦ .
(٤) تفسير الخازن ٤/ ١٢٢ . (٥) انظر روح المعاني للألوسي ٢٨/ ١٦٠ .

يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

حدائق وبساتين ناضرة ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿يومَ لا يُخزي اللّهُ النبيَّ والذين آمنوا معه﴾ أي يوم لا يفضح الله النبي وأتباعه المؤمنين أمام الكفار ، بل يعزهم ويكرمهم قال أبو السعود : وفيه تعريضٌ بمن أخزاهم اللهُ تعالى من أهل الكفر والفسوق[1] ﴿نُورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ أي نور هؤلاء المؤمنين يضيء لهم على الصراط ، ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم ، كإضاءة القمر في سواد الليل[2] ﴿يقولون ربَّنا أتمم لنا نُورنا﴾ أي يدعون الله قائلين : يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدمه لنا ، ولا تتركنا نتخبط في الظلمات قال ابن عباس : هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين[3] ، يدعون ربهم به إشفاقاً حتى يصلوا إلى الجنة ﴿واغفر لنا﴾ أي وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿إنك على كل شيءٍ قديرٌ﴾ أي إنك أنت القادر على كل شيء ، من المغفرة والعقاب ، والرحمة والعذاب . . ثم أمر تعالى بجهاد أعداء الله من الكفرة والمنافقين فقال ﴿يا أيها النبي جاهد الكُفَّار والمُنافقين﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والسِّنان ، والمنافقين بالحجة والبرهان ، لأن المنافقين يظهرون الايمان ، فهم مسلمون ظاهراً فلذلك لم يؤمر عليه الصلاة والسلام بقتالهم ﴿واغلُظ عليهم﴾ أي وشدِّد عليهم في الخطاب ، ولا تعاملهم بالرأفة واللين ، إرعاباً وإذلالاً لهم ، لتنكسر صلابتهم وتلين شكيمتهم ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي ومستقرهم في الآخرة جهنم ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئست جهنم مستقراً ومصيراً للمجرمين . .ثم ضرب تعالى مثلاً للكفار في عدم انتفاعهم بصلة القرابة أو المصاهرة أو النكاح ، لأن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ولا ينفع إلا العمل الصالح فقال ﴿ضرَب اللّهُ مثلاً للذين كفروا امرأةَ نوح وامرأة لوطٍ﴾ أي مثّل تعالى للكفار في عدم استفادتهم بقرابة المؤمنين ، بحال امرأة نوح وامرأة لوط ﴿كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ أي كانتا في عصمة نبيين عظيمين هما «نوح» و«لوط» عليهما السلام ، وإنما وصفهما بالعبودية تشريفاً وتكريماً لهما بإضافتهما إليه تعالى ﴿فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما من اللّهِ شيئاً﴾ أي فخانت كل واحدة زوجها بالكفر وعدم الايمان[4] ، فلم يدفعا عن امرأتيهما - مع نبوتهما -

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٥ .
(٢) وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل : كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم ؟ فقال : (إنهم يأتون غراً محجلين من آثار الوضوء) أي تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ . (٣) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٠١ .
(٤) الخيانة هنا يراد بها الخيانة في الدين لا في العرض ، وقد أخطأ بعض المفسرين حيث نسب لهما فاحشة الزنى ، وهذا لا يجوز لأن الله تعالى أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور ، بل هنَّ شريفات مصونات لحرمة الأنبياء ، وقد قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبيٍّ قط ، وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين ، فتدبره فإنه دقيق .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

شيئاً من عذاب الله **﴿وقيل ادخلا النّار مع الدّاخلين﴾** أي وتقول لهما خزنة النار يوم القيامة : ادخلا نار جهنم مع سائر الداخلين ، من الكفرة المجرمين **قال القرطبي** : ضرب تعالى هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني في الآخرة أحدٌ عن قريبٍ ولا نسيب ، إذا فرّق بينهما الدين ، كما لم يدفع نوح ولوط ـ مع كرامتهما على الله تعالى ـ عن زوجتيهما لما عصتا شيئاً من عذاب الله[1] **﴿وضرب اللهُ مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾** وهذا مثلٌ آخر للمؤمن في عدم تضرره ببقاء قريبه على الكفر إذا كان هو مؤمناً **قال أبو السعود** : أي جعل حالها مثلاً لحال المؤمنين في أن وصلة الكفر لا تضرهم ، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداء الله « فرعون » وهي في أعلى غرف الجنة[2] **قال المفسرون** : واسمها « آسية بنت مزاحم » آمنت بموسى عليه السلام ، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها ، فنجّاها الله من شره ، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين ، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالها بهما وهما رسولا ربِّ العالمين **﴿إذْ قالت ربِّ ابن لي عندك بيتاً في الجنَّة﴾** أي حين دعت ربها قائلةً : يا ربِّ اجعل لي قصراً مشيداً بجوار رحمتك في جنة النعيم **قال بعض العلماء** : ما أحسن هذا الكلام فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت **﴿ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾** فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور ، وفي الآية دليل على إيمانها وتصديقها بالبعث **﴿ونجِّني من فرعون وعمله﴾** أي وأنقذني من كفر فرعون وطغيانه **﴿ونجني من القوم الظالمين﴾** أي وأنقذني من الأقباط ، أتباع فرعون الطاغين ، **قال الحسن** : لما دعت بالنجاة نجّاها الله تعالى أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة تأكل وتشرب وتتنعم[3] **﴿ومريم ابنة عمران﴾** أي ومريم ابنة عمران مثلٌ آخر في الايمان **﴿التي أحصنت فرجها﴾** أي حفظت فرجها وصانته عن مقارنة الفواحش ، فهي عفيفةٌ شريفة طاهرة ، لا كما زعم اليهود عليهم لعنة الله ، أنها زنت وأن ولدها عيسى ابن زنى **﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾** أي فنفخ رسولنا جبريل في فتحة جيبها ، فوصل أثر ذلك إلى فرجها فحملت بعيسى **قال ابن كثير** : إن الله بعث جبريل فتمثل لها في صورة بشر ، وأمره أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام[4] **﴿وصدَّقت بكلمات ربِّها وكُتبه﴾** أي وآمنت بشرائع الله القدسية ، وكتبه السماوية **﴿وكانت من القانتين﴾** أي وكانت من القوم المطيعين ، العابدين لله عز وجل ، وهو ثناءٌ عليها بكثرة العبادة والطاعة ، والخشوع ، وفي الحديث (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ،

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٠١ . (٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٦ . (٣) البحر المحيط ٨/ ٢٩٥ .
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٥ .

وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)(١) .

البَـلاَغَـة : تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين حرَّم وأحلَّ ﴿لم تحرم ما أحلَّ﴾ وبين ﴿عرَّف . . وأعرض﴾ وبين ﴿ثيبات وأبكاراً﴾ وكلها من المحسنات البديعية التي تزيد في جمال الكلام .

٢ ـ الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ زيادةً في اللوم والعتاب .

٣ ـ صيغ المبالغة ﴿العليم الخبير﴾ ﴿نصوحاً﴾ ﴿ظهير﴾ ﴿قدير﴾ الخ .

٤ ـ ذكر العام بعد الخاص ﴿وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة﴾ فقد خصَّ جبريل بالذكر تشريفاً ، ثم ذكره ثانية مع العموم اعتناءً بشأن الرسول ﷺ ووسَّط صالح المؤمنين بين الملائكة المقربين .

٥ ـ المجاز المرسل ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ ذكر المسبَّب وأراد السبب أي لازموا على الطاعة لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله .

٦ ـ المقابلة بين مصير أهل الايمان ومصير أهل الطغيان ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا﴾ و﴿ضرب الله مثلاً للذين آمنوا﴾ .

٧ ـ التغليب ﴿وكانت من القانتين﴾ غلَّب الذكور على الإناث .

٨ ـ السجع المرصَّع كأنه اللؤلؤ والمرجان،وهو كثير في القرآن فتدبره بإمعان .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة التحريم »

* * *

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيّد حسن عبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لله تعالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالي السيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقفًا لله تَعَالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع